

بَغْدَادُ فِي رِحْلَتَيْنِ

طه هاشم الدليمي (*)

الملخص:

يَتناول هذا البحث (بغداد في رحلتين) رحلتين مهمتين لرحالتين معروفين، الأول: هو ابن جُبَيْر من أهل القرن السابع الهجري، والثاني: هو ابن بطّوطة في القرن الثامن الهجري، وقد تكلم هذان الرحالتان على مدينة بغداد كلّ في زمنه الذي شاهدها فيه، فوصف دروبها وأسواقها ومحلاتها ودار الخلافة فيها، وكان وصف كلّ منهما وصفاً دقيقاً، ومن أجل هذا كانت لهاتين الرحلتين قيمة خطيّة كبيرة، لا يستغني عنها كلّ راغب في معرفة أحوال بغداد في ذلك الزمانين، وقد سعى البحث إلى إظهار هذه الأهميّة الخطيّة عند الباحثين في التاريخ البغدادي من الناحية العمرانيّة والحضاريّة.

إنّ هاتين الرحلتين كانتا محلّ عناية الدارسين والباحثين منذ زمن بعيد وما زالتا مهمّتين لكلّ معنّي ببغداد وحضارتها العربيّة والإسلاميّة العريقة.
الكلمات المفتاحية: بغداد، ابن بطّوطة، ابن جبیر.

(*) باحث / العراق.

المقدّمة

بغدادُ وقصّة بنائها:

بغدادُ المدينة الطّيبية الجميلة كانت دار مملكة بني العبّاس، وبانيها هو الخليفة العبّاسي أبو جعفر المنصور، وهو عبد الله بن محمّد بن عليّ بن عبد الله العبّاسي، وكان المنصور قد بنى مدينةً بين الكوفة والجزيرة سمّاها (الهاشميّة)، فأقام بها مدّة إلى أن عَزَمَ على توجيه ابنه محمّد المهديّ لغزو الصّائفة في سنة أربعين ومئة فصار إلى بغداد، فَوَقَفَ بها وقال: ما اسم هذا الموضع؟ فقليل له: بغداد، فقال: هذه والله المدينة التي علّمني أبي محمّد بن عليّ أنّي أُنبيها وأنزلها وينزلها ولدي من بعدي، ولقد غفلت عنها الملوك في الجاهليّة والإسلام، وأنّ الميرة تأتيها في دجلة والفرات من واسط والأبلة والأهواز وفارس وعمان واليمامة، وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربيعة وأذربيجان وأرمينية والرّقة والشّام ومصر والمغرب وأصفهان، ولما عزم الخليفة المنصور على بنائها وجّه في حشر الصّنّاع والفعلّة (العمّال) من الشّام والموصل والجبل والكوفة وواسط والبصرة، وأمر باختيار قوم من أهل الفضل والعدالة والعفة والأمانة والمعرفة بالهندسة، وأول ما ابتدأ ببنائها في سنة خمس وأربعين ومئة، ثمّ قسّم الأرض أربعة أقسام وقلّد القيام بكلّ قسم رجلاً من قوّاده ورجلاً من مواليه ورجلاً من المهندسين، وقد جعل لها أربعة أبواب: باب الكوفة وباب البصرة وباب خراسان وباب الشّام، وبين كل باب منها إلى الآخر خمسة آلاف ذراع بالذراع

السّوداء، وعلى كل باب منها باباً حديد عظيمان جليان، لا يغلق الواحد منها ولا يفتحه إلا جماعة رجال، يدخله الفارس بالعلم والرّمح الطّويل من غير أن يثنيه ولا يميله، وجعل عرض أساس السّور تسعين ذراعاً ثمّ ينخرط حتى يصير في أعلاه خمّساً وعشرين ذراعاً، وارتفاعه ستّون ذراعاً مع الشّرفات، وحول السّور فصيل عظيم، بين حائط السّور وحائط الفصيل مئة ذراع، وبالفصيل أبرجة عظام، وعليه الشّرفات المدوّرة وحدّ لهم أنّ يجعلوا عرض الشّوارع خمسين ذراعاً، وأنّ يبنوا في جميع الأرياض والدّروب من الأسواق والمساجد والحمامات ما يكتفي به أهل كل ناحية ومحلّة، وقد فرغ المنصور من بنائها سنة تسع وأربعين ومئة. هذا ما يتعلّق بالجانب الغربيّ من بغداد، أمّا الجانب الشرقيّ منها فقد نزله المهديّ بن المنصور وابتدأ ببناءه سنة ثلاث وأربعين ومئة، واختطّ المهديّ قصوره بالرّصافة إلى جانب المسجد الجامع الذي كان بالرّصافة، وقد بقيت بغداد دار مملكة العبّاسيين ما عدا المدّة التي انتقل فيها الخليفة المعتصم إلى (سرّ من رأى) في سنة ثلاث وعشرين ومئتين، واتّصل مقامه بها مدة حياته وأيام الواثق والمتوكّل، ولم تخرب بغداد ولا نُقضت أسواقها؛ لأنهم لم يجدوا منها عوضاً، ولأنه اتصلت العمارة والمنازل بين بغداد و(سرّ من رأى) كما يذكر المؤرّخون، ثمّ إنّ دولة بني العبّاس استمرّت ببغداد من مبايعة أبي العبّاس السّفّاح سنة اثنتين وثلاثين ومئة إلى أنّ ملكها (التتر) حين دخلوا العراق واستولوا على

بغداد وَقَتَلُوا المستعصم آخر الخلفاء العباسيين^(١).

الكلمات المفتاحية: بغداد، رحلتين، ابن بطوطة،

ابن جبير

أَسْمَاؤُهَا:

ذَكَرُوا أَنَّ فِي اسمِ بَغْدَادِ لُغَاتٍ: بَغْدَاذُ وَبَغْدَادُ وَبَغْدَانُ
بِالنُّونِ وَمَغْدَانُ، وَأَنَّهُ مَعْرَبٌ يَذْكَرُ وَيؤنَّثُ^(٢).

وذكر صاحب القاموس من لغاتها: بغداد وبغداد
بمهملتين ومعجمتين وتقديماً كل منهما وبغدان
وبغدين ومغدان وهي مدينة السلام^(٣).

صِفَتُهَا وَطَبِيبُهَا:

قال صاحبُ كتابِ البلدان: بغداد وسط العراق
والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق
الأرض ولا في مغاربها سعةً وجلالةً وكبراً وعمارةً
وكثرةً مياهٍ وصحةً هواءٍ، سكنها أهل الأمصار
وانتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية
وأثرها جميع أهل الأفاق على أوطانهم، يجري في
حافتيها النهران الأعظمان دجلة والفرات، وتأتيها
التجارات بالميرة برّاً وبحراً من أرض الإسلام ومن
غير أرض الإسلام، وهي وسط الدنيا لأنها من
الإقليم الرابع وهو الإقليم الأوسط الذي يعتدل
فيه الهواء في جميع الأزمان والفصول وبعثت
هوائها وطيب ثراها وعدوبة مائها حسنت أخلاق
أهلها ونضرت وجوههم وانفتقت أذهانهم حتى
فاقوا الناس في العلم والفهم والنظر والتمييز
والتجارات والحدق بكل مناظرة وإحكام كل مهنة

وإتقان كل صناعة فليس عالم أعلم من عالمهم،
ولا أروى من راويهم، ولا أجدل من متكلمهم،
ولا أعرب من نحوهم، ولا أفصح من قارئهم،
ولا أمهر من طبيبههم، ولا أحنق من مغنيهم، ولا
ألطف من صانعهم، ولا أكتب من كاتبهم، ولا أبين
من منطيقهم، ولا أعبد من عابدهم، ولا أروع من
زاهدهم، ولا أفقه من حاكمهم، ولا أخطب من
خطيبهم، ولا أشعر من شاعرهم، ولا أفك من
ماجنهم. هذا كلام صاحب كتاب البلدان في أهلها،
وهي شهادة فريدة من نوعها.

سُمِّيَتْ بَغْدَادُ مَدِينَةَ السَّلَامِ لِأَنَّ دَجْلَةَ كَانِ يُقَالُ
لِهَا (وادي السلام)، فقليل لبغداد (مدينة السلام)،
وقيل لأنهم أرادوا (مدينة الله)، واسمها الأول
عند الناس (الزوراء)؛ لانعطافها بانعطاف دجلة
وكان بعضهم يسميها (الصيداء)؛ لأنها تصيد
قُلُوبَ الرِّجَالِ وَقِيلَ لِرَجُلٍ: كَيْفَ رَأَيْتَ بَغْدَادَ؟
قال: الأرض كلها بادية وبغداد حاضرتها.

وقد زار هذه المدينة الجميلة عدد كثير من
الرحالين قديماً وحديثاً، وممن زارها من العرب
الرحالة (ابن جبير) والرحالة (ابن بطوطة)
ووصفا ما شاهدا فيها من آثار وديار، وهذه
الأوراق التي بين يديك -أيها القارئ الكريم- تجد
فيها شيئاً موجزاً عن هاتين الرحلتين التاريخيتين
المهمتين إلى هذه المدينة القديمة الكريمة^(٤).

(٤) يُنظَرُ فِي هَذِهِ الْمَقْدِمَةِ: كِتَابُ الْبُلْدَانِ لِلْيَعْقُوبِيِّ،
وَمَعْجَمُ الْبُلْدَانِ (بَغْدَادُ)، وَالرُّوضُ الْمَعْطَارُ فِي خَبَرِ الْأَمْصَارِ
لِلْحَمِيرِيِّ فِي (بَغْدَادُ) أَيْضًا.

(١) معجم البلدان في (بغداد) و(الرصافة).

(٢) الصحاح في (بغدد).

(٣) القاموس المحيط ٢٨٨/١.

بغدادُ في رحلة ابن جُبَيْر

الرَّحالة ابن جُبَيْر هو أبو الحسن محمَّد بن أحمد بن جُبَيْر الأندلسي، ولد في بلنسية سنة (٥٤٠هـ)، ودرس على أبيه وغيره من العلماء في سبته وغرناطة، وبدأ رحلته إلى الحجاز في سنة (٥٧٨هـ) مع أحد أصدقائه، وألقى عصا التَّسيار في بغداد ووصف أحياءها ومساجدها وأسواقها وحمَّاماتها ومدارسها... وكانت وفاة هذا الرَّحالة في سنة (٦١٤هـ)^(٥).

دخل ابن جُبَيْر بغداد يوم الأربعاء قبيل العصر في الثَّالث من صفر من سنة (٥٨٠هـ)^(٦). وأقام ببغداد ثلاثة عشر يوماً^(٧).

ومما لا شك فيه أن لرحلة ابن جُبَيْر أهمية خاصة في الدِّراسات التَّاريخية والخطية المتعلقة ببغداد في العصور المتأخرة، وقد أفاد منها جملة من الباحثين، مع أن هذه النُّصوص التي في هذه الرِّحلة نصوص مختصرة وغير مرتبة ترتيباً جيِّداً. يقول الدُّكتور صالح العلي في كلامه على بغداد: «... أمَّا أحوالها في العصور العباسية المتأخرة فلم يُكتب عنها دراسات شاملة، ويرجع بعض هذا إلى عمق التَّحولات الكثيرة التي حدثت فيها، بالإضافة إلى أنه تتوفر عن أحوالها الخطية والعمرانية في العهود الأولى معلومات مفصلة نسبياً يسرت للباحثين القيام بدراسات شاملة بينما لم يصلنا

(٥) الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، د. زكي

محمَّد حسن، ص ٧٠ - ٨١.

(٦) رحلة ابن جُبَيْر ١٧٢ - ١٧٣.

(٧) الرحلة ١٨٤.

عن العهود العباسية المتأخرة إلا وصفان شاملان هما اللذان قدَّمهما ابن عقيل وابن جُبَيْر وكلا الوصفين رغم أهميتهما وشمولهما مقتضبان نسبياً ولم يستوعبا المعلومات الكثيرة المتفرقة في كتب التَّاريخ والتَّراجم التي ألّفت في العهود العباسية المتأخرة»^(٨).

لقد ذكر ابن جُبَيْر - فيما ذكر - طيب بغداد وهواءها فقال: «... وكنا سمعنا أنَّ هواء بغداد^(٩) ينبت السُّرور في القلب ويبعث النَّفس دائماً على الانبساط والأنس، فلا تكاد تجد فيها إلا جِذلان طرباً وإن كان نازح الدَّار مغترباً...»^(١٠)، وهو يقول: «... هذه المدينة العتيقة وإن لم تزل حاضرة الخلافة العباسية ومثابة الدَّعوة الإمامية القرشية الهاشمية قد ذهب أكثر رسمها ولم يبق منها إلا شهير اسمها وهي بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إخفاء الحوادث عليها والتفات أعين النَّوَّاب إليها كالطلُّ الدَّارس والأثر الطَّامس أو تمثال الخيال الشَّاخص فلا حُسن فيها يستوقف البصر ويستدعي من المستوفز العقلة والنَّظر إلا دخلتها التي هي بين شرقيها وغربيها منها كالمرآة المجلوة بين صفحتين أو العقد المنتظم بين لبتين، فهي تردها ولا تظماً، وتتطلع منها في مرآة صقيلة لا تصدأ، والحسن الحريمي بين أهوائها ومائها ينشأ هو من ذلك على شهرة في البلاد معروفة

(٨) خطط بغداد في القرن الخامس الهجري.

(٩) الهواء بلغة الأوَّلين يقابل ما نسميه اليوم المناخ أو الجو أو الطَّقس.

(١٠) الرحلة / ١٧٢.

موصوفة ففتن الهوى إلا أن يعصم الله منها مخوفة...»^(١١).

وبعد صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس من صفر أي بعد يومين من دخول ابن جبير شاهد مجلس الشيخ الإمام رضي الدين القزويني رئيس الشافعية وفقهه المدرسة النظامية^(١٢).

وهذا الرجل الذي ذكره ابن جبير هو أبو الخير أحمد بن إسماعيل بن يوسف بن محمد بن العباس القزويني المولود في شهر رمضان من سنة (٥١٢هـ) بقزوين المتوفى بها سنة (٥٩٠هـ) في الثالث والعشرين من المحرم من هذه السنة^(١٣) وشاهد له الرحالة مجلساً ثانياً بعد صلاة العصر من يوم الجمعة الثاني عشر من الشهر المذكور في المدرسة النظامية أيضاً^(١٤)، وشاهد صبيحة يوم السبت الثالث عشر من صفر مجلس الشيخ جمال الدين أبي الفضائل ابن علي الجوزي بإزاء داره على الشط بالجانب الشرقي وفي آخره على اتصال من قصور الخليفة وبمقربة من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقي وهو يجلس فيه كل يوم سبت^(١٥) وشاهد مجلساً ثانياً لابن الجوزي بكرة يوم السبت الحادي عشر لصفر^(١٦) بباب بدر في ساحة قصور الخليفة ومناظره مشرفة عليه، وهذا الموضوع المذكور هو من حرم الخليفة،

(١١) الرحلة / ١٧٣.

(١٢) المصدر نفسه / ١٧٤.

(١٣) وفيات الأعيان ٥/ ٣١١/ ٣١٧/ ٣١٨.

(١٤) الرحلة / ١٧٦.

(١٥) الرحلة / ١٧٦.

(١٦) كذا ورد ولعل الصواب (الحادي والعشرين).

وخص بالوصول إليه والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ومن حضر من الحرم ويفتح الباب للعامّة فيدخلون إلى ذلك الموضوع وقد بسط بالحصص...^(١٧) وحصر لابن الجوزي مجلساً ثالثاً في يوم السبت الثالث عشر لصفر^(١٨) بالموضع المذكور بإزاء داره على الشط الشرقي^(١٩)، ولا يخفى أن كلام ابن جبير المتقدم كلام مهم من الناحية الخطيئة، ويمكن أن يستفاد منه في تعيين هذه المواضع البغدادية القديمة؛ فأين كانت دار ابن الجوزي وأين كانت باب بدر؟

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن المهتمين بخطط بغداد اختلفوا بشأن دار ابن الجوزي، خاصة وقد نقل عن الباحث عبد الحميد عبادة في بعض أقواله أن موضع بستان (اكريبوز) في بغداد كان في موضع دار ابن الجوزي المشار إليها في الرحلة فهي على دجلة على الشط يفصل بينهما (قصر النقيب)، وأن قصور الخليفة المذكورة هي في موضع قصور (الخضريين) لقربها من

باب البصلية^(٢٠)، ويُعلّق الأستاذ الباحث يعقوب سرقيس على الرأي المتقدم قائلاً إنه من المحتمل أن يكون (بستان اكريبوز) دار ابن الجوزي دون البت في ذلك، وهو يرى أن قصور (الخضريين) ليست في موضع تصور الخليفة

(١٧) الرحلة / ١٧٧.

(١٨) كذا ورد.

(١٩) الرحلة / ١٧٧، والشط في اللغة الجانب وصفة النهر وقد صرنا اليوم نطلق الشط على النهر نفسه وهو من التوسع اللغوي الحديث.

(٢٠) مباحث عراقية ١/ ٢٤٣.

بل إنَّ قصور الخليفة أو دور الخلافة كما سماها ياقوت كانت بين (شريعة المربعة) أو نحوها أو فوقها أو تحتها وبين (شريعة المصبغة)^(٢١)، وباب الغربية عند الأستاذ يعقوب سركييس هي شريعة المصبغة الحالية، وأن حريم دار الخلافة يبدأ من باب الغربية وينتهي عند باب المراتب عند شريعة المربعة أو نحوها، مستدلًا على ذلك بقول ابن جبير أنَّ دار ابن الجوزي كانت على اتصال من قصور الخليفة وبمقربة من باب البصلية... واستدل على ذلك بما ورد في سالنامه بغداد لسنة (١٩٠٠ م) أن مرقد ابن الجوزي في (بستان اكريبوز)؛ لأنه لا يبعد أن هذا البستان كان دار ابن الجوزي فدفن فيه وقد رأى هذا الباحث مجلدًا من كتاب (صفة الصّفوة) لابن الجوزي كتب سنة (٦٠٣هـ) وفي آخره بقلم متأخر، ولكنّه قديم: (إن قبر المؤلف... الواقعة على شط دجلة)، وقد أكلت الأرضة مكان كلمتين من الكتاب المخطوط^(٢٢).

وقيل إنَّ دار ابن الجوزي التي ذكرها ابن جبير ليست داره بل هي مدرسة بنفش بنت عبد الله الرومية حظية الخليفة العبّاسيّ المستضيء بالله المتوفاة سنة (٥٩٨هـ) وهذه المدرسة تسمى المدرسة الشّاطئية أيضًا، وأساس هذا أن لكل مدرسة دارًا يسكنها المدرس وابن الجوزي كان مدرسًا في هذه المدرسة عند دخول الرّحالة بغداد^(٢٣)، وقد كانت هذه المدرسة في الأصل

(٢١) المصدر المتقدم ١/١٢٣.

(٢٢) المصدر المتقدم ١/١٢٣.

(٢٣) دليل خارطة بغداد قديمًا وحديثًا ١٩٥، نساء

الخلفاء ١١.

دارًا لنظام الدّين أبي نصر ابن جهير كما نصَّ على ذلك ابن الجوزي في تاريخه ثمَّ صارت ملكًا لجهة الإمام المستضيء بأمر الله فوقفها مدرسة لأصحاب الإمام أحمد ابن حنبل وسلمت إلى ابن الجوزي فدرّس فيها سنة (٥٧٠هـ)^(٢٤).

وقد ذكر ابن الجوزي أنَّ دار جهير التي صارت مدرسة للحنابلة كانت بشاطئ دجلة بباب الأزج^(٢٥). ويرى الدكتور مصطفى جواد أنَّ هذه المدرسة الحنبلية كانت بباب المراتب قرب باب الأزج^(٢٦)، غير أنه لم يورد دليله على أنَّ هذه الدار كانت بباب المراتب، نعم قال ابن الجوزي إن هذه الدار كانت تُعرف بـ(دار الرّواشن) كما نقل الدكتور نفسه^(٢٧). وقال ابن السّاعي المؤرّخ في ذكر بنفش أنها جعلت دارها بأسفل البلد على شاطئ دجلة مدرسة وفتتها على الحنابلة^(٢٨). وذهب الدكتور عماد عبد السلام رؤوف إلى أنَّ موقع هذه المدرسة كان على شاطئ دجلة في محلّة باب المراتب نسبة إلى الباب الجنوبي لدار الخلافة العبّاسيّة المسمّى بهذا الاسم، ونقل عن الأستاذ يعقوب سركييس أن باب المراتب عند شريعة (السّنك) تقريبًا وباتصاله كانت مدرسة بنفش^(٢٩) ويظهر مما تقدّم أن كون دار ابن الجوزي مدرسة للحنابلة افتراض تاريخي ليس

(٢٤) في التّراث العربي ١/١٢٧، المنتظم ١٠/١٢٥.

(٢٥) المنتظم ١٠/١٢٤.

(٢٦) في التّراث العربي ١/١٢٧.

(٢٧) المصدر المتقدم ١/١٢٧.

(٢٨) نساء الخلفاء ١٧.

(٢٩) مدارس بغداد في العصر العبّاسي ١٨٦.

ثمة ما يؤيِّده، وما المانع أن يكون ابن الجوزي قد جلس بإزاء داره وليس في المدرسة الشَّاطِئِيَّة؟ وما المانع أن تكون داره خارج المدرسة فعلاً؟ ومهما يكن فإنَّ الأمر لا يعد محسوماً من النَّاحِيَّة التَّاريخِيَّة كما يظهر لعدَّة أمور منها: أنَّ ابن جبیر نصَّ على أنَّ دارَ ابن الجوزي كانت على اتِّصال دور الخليفة بمقربة من باب البصلية على وجه التَّحديد، ومن ذلك أنهم افترضوا أنَّ هذه الدَّار هي المدرسة الحنبليَّة التي كانت ببابِ المراتب، مع أنهم نقلوا عن المؤرخين أن هذه المدرسة كانت بباب الأزج تحديداً.

ومن ذلك أن هذا الزَّعم يؤدي إلى الاضطراب في تعيين باب الأزج وباب المراتب وباب البصلية ولكل من هذه موضع خاص كما يظهر لنا ذلك من قول ياقوت في معجم البلدان^(٣٠).

وأغلب الظَّن أن ابن الجوزي لو كان في مدرسة بنفشاً لما وسع ابن جبیر جهل هذا الموضع ولنص على انه مدرسة ولعين موضعها ولذا لا يبعد أن تكون دار ابن الجوزي على شاطئ دجلة فعلاً قرب باب البصلية أي (الباب الشرقي) اليوم، ومن المعلوم أن باب المراتب كان آخر أبواب دار الخلافة، وهو يتلو باب الخاصة الذي هو تجاه دار الفيل وباب كلواذى^(٣١) أما باب بدر فكان يسمى باب الخاصة، يدخل منه من سمَّت منزلته ثمَّ سدَّ أيَّام الطَّائِع ٣٦٨هـ . وبدر هذا هو أحد خواص الخدم^(٣٢) وهو بدر المعتضدي الصَّغير صاحب

جيش المعتضد المقتول سنة ٢٨٩هـ ، في قول بعض الباحثين المتأخرين^(٣٣) وباب الخاصة هذا الذي سمي باب بدر ليس هو باب الخاصة الذي أحدثه الطَّائِع لله تجاه دار الفيل وباب كلواذى، وبعد هذا الباب كان باب المراتب، وقد نصَّ ياقوت على أنَّ باب الخاصة لا أثر له في زمانه^(٣٤) وقيل إنَّ باب بدر كانت أرضه متصلة بأرض المدرسة المرجانية من الجنوب والغرب^(٣٥).

ومن جُملة ما ذكره ابن جبیر في صفة بغداد قوله: «هي كما ذكرناه جانبان شرقيّ وغربيّ ودجلة بينهما، فأما الجانب الغربيّ فقد عمَّه الخراب واستولى عليه، وكان المعمور أولاً، وعمارة الجانب الشرقيّ محدثة، لكنه -أي الجانب الغربيّ- مع استيلاء الخراب عليه يحتوي على سبع عشرة محلَّة كل محلَّة منها مدينة مستقلة، وفي كل واحدة منها الحمامان والثلاثاء والثمانية منها بجوامع يصلى فيها الجمعة فأكبرها القرية وهي التي نزلنا فيها بربض منها يعرف بالمربعة على شط دجلة بمقربة من الجسر، فحملته دجلة بمدھا السَّيلي فعاد النَّاس يعبرون بالزوارق، فالناس ليلاً ونهاراً من تمادي العبور فيها في نزهة متَّصلة رجالاً ونساءً، والعادة أن يكون لها جسران، أحدهما مما يقرب من دور الخليفة والآخر فوقه لكثرة النَّاس...»^(٣٦) وليس لدينا معلومات عن الحمامات المشار إليها

(٣٣) في التَّراث العربي ٩٠/١.

(٣٤) معجم البلدان في (باب الخاصة).

(٣٥) في التَّراث العربي ٩٠/١.

(٣٦) الرِّحْلة ١٨٠.

(٣٠) معجم البلدان في مادة (الأزج).

(٣١) معجم البلدان في (باب الخاصة).

(٣٢) معجم البلدان في (منظرة الرِّيحانيين).

غير أن الجوامع التي كانت في الجانب الغربي من بغداد هي جامع بمحلة الحربية وجامع بالقطيعة والزبيدية وجامع فخر الدولة ابن المطلب بمحلة قصر عيسى وجامع عمر بن بهليقا الطحان بمحلة العقبة وجامع المنصور بمحلة باب البصرة فهذه ستة جوامع^(٣٧).

ويتحدث الرحالة في موضع آخر من رحلته عن المساجد ببغداد فيقول: «... وأما المساجد بالشرقية والغربية فلا يأخذها التقدير فضلاً عن الإحصاء»^(٣٨) وأشار الرحالة في موضع آخر إلى أن جميع جوامع البلد ببغداد المجمع فيها أحد عشر^(٣٩) والقرية التي تقدم ذكرها هي بضم القاف وفتح الراء وفتح الياء المشددة وهي تصغير القرية وهما محلتان إحداهما ببغداد الشرقية في حريم دار الخلافة وهي كبيرة فيها محال وسوق كبير، والأخرى محلة كبيرة جداً كالمدينة بالغربية تقابل مشرعة سوق المدرسة النظامية^(٤٠).

ويستفاد من كلام الرحالة أنه أراد القرية التي في الجانب الغربي لأنه ذكرها في سياق كلامه على محال الجانب الغربي ولأن قوله إنها كبيرة ينطبق عليها ويظهر أن المربعة التي أشار إليها هي مربعة القطانين التي كانت في موضع محطة (الترامواي)

(٣٧) بغداد مدينة السلام / تأليف ريجارد كوك ١/١٨٦.
(٣٨) الصحيح أن يقول: «فلا يأخذها الإحصاء فضلاً عن التقدير»؛ لأنه يقال لا أملك درهماً فضلاً عن دينار، وإذا تعدد الإحصاء فتعذر التقدير أولى، ويُنظر في استعمال فضلاً المصباح المنير للفيومي في (فضل).

(٣٩) الرحلة ١٨٣.

(٤٠) معجم البلدان في (القرية).

القديم قرب مدرسة الكرخ الثانوية^(٤١) والمعتقد أن القرية القديمة كانت تشتمل على محلة باب السيف وعلوي الحلة والشواعة اليوم^(٤٢) وذهب الأستاذ بشير فرنسيس إلى أن القرية التي نزل فيها ابن جبير هي في الجانب الشرقي بدليل أنه ما يزال إلى اليوم موضع يعرف برأس القرية في بغداد الشرقية وما زال اسم المربعة موجوداً ويطلق على محله في بغداد الشرقية في جنوبي رأس القرية^(٤٣) وإذا عُرف موضع الجسر الذي ذكره الرحالة في كلامه المتقدم عُرف الربض الذي نزل فيه وهو ربض المربعة. وموضع هذا الجسر مختلف فيه عند المهتمين بأمر الخطط البغدادية، ويرى (ريجارد كوك) أن جسر القوارب المذكور في الرحلة كان بقرب (السفارة البريطانية) في بغداد قديماً في منطقة الكريما^(٤٤) ويعلق مترجماً رحلة (كوك) قائلين إن بغداد كان لها جسران عندما دخلها ابن جبير أحدهما قرب مصب نهر عيسى في محلة قصر عيسى المعروفة اليوم بالسوق الجديد والشيخ بشار بين المحاكم المدنية والجانب الغربي، والجسر الآخر أسفل منه كان بين باب الغربية في شريعة السموأل والشواعة^(٤٥) ويذكر (لسترانج) أن الجسر الذي ورد في الرحلة لا يطابق موضعه موضع أي من الجسور الثلاثة التي كانت ببغداد الأعلى أو الكبير أو الأسفل التي كانت في

(٤١) دليل خارطة بغداد ١٦٧.

(٤٢) بغداد مدينة السلام ٢/٢٦٢ (الملحق).

(٤٣) بغداد في عهود الخلافة العباسية.

(٤٤) بغداد مدينة السلام ١/١٨٦.

(٤٥) المصدر المتقدم ١/١٨٦.

بغداد منذ عهد الخليفة المنصور حتى منتصف القرن الرابع الهجري^(٤٦)، ويذكر الدكتور المؤرخ صالح العلي وهو صاحب أوسع دراسة عن جسور بغداد في عصورها العباسية، أن الجسر الذي أشار ابن جبير إلى أنه جرف بمد دجلة هو الذي كان عند الرقة المقابلة لدار الخلافة^(٤٧) وهناك رأي آخر هو أن الجسر المذكور في الرحلة هو الذي أنشأته السيدة بنفشة حظية الخليفة المستضيء بالله وهو معقود في مكان جسر باب الغربية، وكان قد بقي الجسر العتيق قرابة خمسين عامًا في الموضع المذكور، ونقل الجسر العتيق إلى موضع جسر سوق الثلاثاء فصار للناس جسران جسر باب الغربية وجسر سوق الثلاثاء، ويظهر أن الجسر الذي ذكره ابن جبير في مربعة القطنين هو جسر سوق الثلاثاء^(٤٨) والظاهر أن قول الدكتور العلي أولى بالاتباع وأن الموضع الذي عينه للجسر يقابل موضع محلة القرية في بغداد الغربية.

ومن محالّ بغداد الغربية التي وردت في هذه الرحلة الكرخ وقد وصفها الرحالة بقوله (وهي مدينة مسورة) ومحلة باب البصرة وهي أيضًا مدينة وبها جامع المنصور وهو جامع كبير عتيق البنيان حفيظة، ومن المحال محلة الشارع وهي أيضًا مدينة قال (فهذه الأربع أكبر المحلات)^(٤٩).

(٤٦) بغداد في عهد الخلافة العباسية ٨٤.

(٤٧) المواصلات والجسور في بغداد: د. صالح العلي، مجلة المورد، مج ٨ عدد ٤ / ص ١٣٤، معالم بغداد الإدارية والعمرانية: ٢١٦.

(٤٨) دليل خارطة بغداد ١٩٢.

(٤٩) الرحلة ١٨٠، وقد جمع العرب المحلة على محال والمجلة على مجال، والظاهر أن هذا الجمع بصيغة جمع التأنيث، وهو من كلام المتأخرين.

أما الكرخ فهو في الأصل السوق الذي أمر المنصور أن يبني ما بين الصراة ونهر عيسى وأن يجعل صفوفًا ويرتب كل صنف موضعه، فسُمي بالكرخ، وكانت الكرخ أولًا في وسط بغداد والمحال حولها وهي في زمن ياقوت محلة وحدها مفردة في وسط الخراب وحولها محال إلا أنها غير مختلطة بها، وبين شرق الكرخ والقبلة محلة باب البصرة وبين الكرخ وباب البصرة نحو شوط فرس وفي جنوبي الكرخ محلة نهر القلائن وبينهما أقل مما بينهما وبين باب البصرة وعن يسار قبلة الكرخ محلة باب المحول وفي قبلتها نهر الصراة^(٥٠)، أما محلة باب البصرة فهي منسوبة إلى أحد أبواب بغداد الجنوبية المسمى بباب البصرة، وفي هذه المحلة كان مسجد المنصور وفي شرقي هذه المحلة كانت محلة الشرقية قيل لها الشرقية لأنها شرقي مدينة المنصور لا لأنها في الجانب الشرقي، وفيها كان مسجد الشرقية^(٥١)، ويرى (ريجار كوك) أن الكرخ تبعد عن دجلة وهي مدينة مستقلة لها سور خاص بها وأن محلة باب البصرة وهي تضم ما بقي من المدينة المدورة قرب بابها العتيق المسمى باب البصرة والمنطقة المعروفة قديمًا بالشرقية ثم الشارع وهي تمتد محاذية ضفة دجلة شمالي المارستان العضدي، وكانت في يوم من الأيام جزء من الحربية^(٥٢) وقد نسب كوك إلى الخطأ، لأن محلة الشارع الواردة في الرحلة كانت

(٥٠) معجم البلدان ومراسد الاطلاع في (كرخ بغداد).

(٥١) المصدر نفسه في (الشرقية).

(٥٢) بغداد مدينة السلام ١/ ١٨٩.

تتصل من الشّمال بالحريم الطّاهري وهو يتّصل بالقطيعة الزبيدية وفيها باب التّبن، ويجوز أنّ تكون الحربية متصلة بالزبيدية من الغرب فكيف تكون محلّة الشّارع جزءاً من الحربية قديماً^(٥٣). ولعل الشّارع المذكور في الرّحلة هو محلّة شارع الأنبار وكانت هذه المحلّة على ما قال ياقوت قرب مدينة المنصور من جهة الأنبار فسميت بذلك^(٥٤) وقد ذكر ابن عبد الحق البغداديّ أنّ شارع الأنبار كان محله خارج باب الأنبار ولم يبق له أثر في زمنه وليس به بناء إلاّ تربة إبراهيم الحربي المشهور^(٥٥).

ومما قاله ابن جبير في رحلته: «وبين الشّارع ومحلّة باب البصرة سوق المارستان وهي مدينة صغيرة فيها المارستان الشّهير ببغداد وهو على دجلة... وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية، والماء يدخل إليه من دجلة، وأسماء سائر المحلات يطول ذكرها كالوسيطه^(٥٦)، وهي بين دجلة ونهر يتفرع من الفرات وينصب في دجلة، يجيء فيه جميع المرافق التي في الجهات التي يسقيها الفرات ويشق على باب البصرة التي ذكرنا محلته^(٥٧) نهر آخر منه وينصب أيضاً في دجلة...»^(٥٨).

(٥٣) المصدر نفسه ١ / ١٩٠.

(٥٤) معجم البلدان في (شارع الأنبار).

(٥٥) مراصد الاطلاع في (شارع الأنبار).

(٥٦) كذا ورد في الرّحلة، ولم أهدأ إلى معرفتها.

(٥٧) الصّواب الذي ذكرنا محلته؛ لأنّ الباب مذكور في

العربية الفصيحة، قال تعالى: {لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ}.

(٥٨) الرّحلة ١٨٠.

أما المارستان العضدي المذكور فقد أنشأه عضد الدولة في الجانب الغربيّ من بغداد، وفتّح في يوم الخميس لثلاث خلون من صفر وقيل بل لليلة خلت من ربيع الآخر سنة ٣٧٢هـ^(٥٩) وقد قال ياقوت في قصر الخلد: (... وكان موضع البيمارستان العضدي اليوم أو جنوبيه...)^(٦٠).

ويواصل ابن جبير كلامه على بغداد الغربيّة فيقول: (ومن أسماء المحلات العتابية وبها تصنع الثياب العتابية وهي حرير وقطن ومختلفات الألوان^(٦١)) ولم يذكر الحموي محلّة العتابية في معجمه. ومن المحلات التي ذكرت في الرّحلة الحربية التي كانت أعلى بغداد وليس وراءها إلاّ القرى الخارجة عن بغداد^(٦٢) ولا شكّ في أنّ الحربية من محال الجانب الغربيّ من بغداد وهي عند باب حرب وهي محلّة كبيرة مشهورة منسوبة إلى حرب عبد الله البلخي المعروف بالراوندي، وكان مدير شرطة بغداد في زمن المنصور وقُتل سنة ٤٧١هـ، والحربية هذه عند مقبرة بشر الحافي وأحمد بن حنبل وغيرهما، وقد خرب جميع ما كان يجاور الحربية من المحال وبقيت وحدها كالبلدة المفردة في وسط الصّحراء فعمل عليها أهلها سورًا وجيروها، وبها أسواق من كل شيء، ولها جامع تقام فيه الخطبة والجمعة وبينهما وبين بغداد نحو ميلين وإذا جاوزت جامع المنصور فجميع تلك المحال يقال لها الحربية مثل

(٥٩) المنتظم في حوادث ٣٧٢هـ.

(٦٠) معجم البلدان في (الخلد).

(٦١) الرّحلة / ١٨٠.

(٦٢) الرّحلة / ١٨٠.

النَّصْرِيَّة وَالشَّاعِرِيَّة وَدَارِ بَطِيخٍ وَالْعَبَّاسِيِّينَ^(٦٣) وغيرها^(٦٤) ومن المشاهد التي ذكرها ابن جُبَيْر قبر معروف الكرخي ومشهد عون ومعين وقبر موسى بن جعفر قال «وبإحدى هذه المحلات قبر معروف الكرخي وفي الطَّرِيقِ إِلَى بَابِ الْبَصْرَةِ مَشْهَدٌ حَفِيْلٌ الْبَنِيَانِ دَاخِلُهُ قَبْرٌ مَتَسِّحٌ السَّنَامِ عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ هَذَا قَبْرُ عَوْنٍ وَمَعِينٍ أَوْلَادِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَفِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ أَيْضًا قَبْرُ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، إِلَى مَشَاهِدٍ كَثِيرَةٍ مِمَّنْ لَمْ تَحْضُرْنَا تَسْمِيَتُهُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالسَّلَفِ الْكَرِيمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ جَمِيعِهِمْ»^(٦٥).

إِنَّ ابْنَ جُبَيْرٍ لَمْ يَسْمِ الْمَحَلَّةَ الَّتِي فِيهَا قَبْرُ الشَّيْخِ مَعْرُوفِ الْكَرْخِيِّ وَيُظْهِرُ أَنَّهُ أَرَادَ مَحَلَّةَ (قَطْفَتَا)؛ لِأَنَّ يَاقُوتًا قَالَ: إِنَّ قَطْفَتَا مَحَلَّةَ كَبِيرَةٍ ذَاتِ أَسْوَاقٍ بِالْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ بَغْدَادٍ مَجَاوِرَةً لِمَقْبَرَةِ الدَّيْرِ الَّتِي فِيهَا قَبْرُ الشَّيْخِ مَعْرُوفِ الْكَرْخِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ...^(٦٦).

أما مشهد عون ومعين الذي ذكره فهو مجاور لرباط الأخلاطية بمشرفة الكرخ الذي أنشأه الخليفة الناصر لدين الله، وإلى جنب هذا الرباط تربة دفن فيها الخليفة الناصر لدين الله جهته التي وقف الرباط عليها وهي سلجوق خاتون بنت السلطان قلع أرسلان^(٦٧) وكان هذا المشهد الذي

ذكره الرَّحَالَةُ فِي الْمَوْضِعِ الْمَسْمُومِ الْيَوْمَ (شَرِيعَةُ الْخَضْرِ الْيَاسِ) فِي مَحَلَّةِ الْجَعْفِرِ الْحَالِيَةِ^(٦٨) وَفِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ بَغْدَادِ شَاهِدِ ابْنِ جُبَيْرِ الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ النَّاصِرِ لِدِينِ اللَّهِ ابْنَ الْمُسْتَضِيِّ أَمَامَ مَنْظَرَتِهِ بِالْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ وَقَدْ انْحَدَرَ عَنْهَا صَاعِدًا فِي الزُّورِقِ إِلَى قَصْرِهِ بِأَعْلَى الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ عَلَى الشَّطِّ وَكَانَ ذَلِكَ عَشِيَّةَ السَّبْتِ السَّادِسِ لَصَفْرِ مِنْ سَنَةِ ٥٨٠ هـ، وَقَدْ أَبْصَرَ الرَّحَالَةَ أَيْضًا عَشِيَّةَ يَوْمِ الْأَحَدِ بَعْدَهُ مَتَطَلِّعًا مِنْ مَنْظَرَتِهِ الْمَذْكُورَةِ بِالشَّطِّ الْغَرْبِيِّ، وَكَانَ الرَّحَالَةُ يَسْكُنُ بِمَقْرَبَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَنْظَرَةِ^(٦٩)، وَهَذِهِ الْمَنْظَرَةُ الَّتِي شَاهَدَ فِيهَا ابْنَ جُبَيْرِ الْخَلِيفَةَ النَّاصِرَ هِيَ عَلَى مَا يَظُنُّ لِسْتِرَانِجِ الْمَنْظَرَةِ الَّتِي شَيْدَهَا الْخَلِيفَةُ الْمُسْتَنْجِدُ فِي سُوقِ الرِّيحَانِينَ عِنْدَ بَابِ بَدْرٍ^(٧٠) وَالظَّاهِرُ أَنَّ قَوْلَ لِسْتِرَانِجٍ غَيْرِ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْمَنْظَرَةَ كَانَتْ فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ بَغْدَادِ، وَقَدْ نَصَّ ابْنُ جُبَيْرٍ عَلَى أَنَّ مَنْظَرَةَ الْخَلِيفَةِ الَّتِي شَاهَدَهُ فِيهَا كَانَتْ بِالْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ^(٧١) وَأَشِيرُ هُنَا إِلَى اخْتِلَافِ الْبَاحِثِينَ فِي تَعْيِينِ مَوْضِعِ الْقَصْرِ الَّتِي ذَكَرَهُ ابْنُ جُبَيْرٍ بِأَعْلَى الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ بَغْدَادِ عَلَى الشَّطِّ، فَالْأَسْتَاذُ يَعْقُوبُ سَرْكِيْسُ يَرَى أَنَّ بَقَايَا هَذَا الْقَصْرِ هُوَ الْإِيْوَانُ الَّذِي بِالْقَلْعَةِ وَهُوَ الْقَصْرُ الَّذِي ذَكَرَهُ صَاحِبُ الْحَوَادِثِ الْجَامِعَةِ

(٦٨) نساء الخلفاء ١١٧ (الحاشية)، مختصر التاريخ ١٣٠.

(٦٩) المنظرة هي المرقبة تكون على مكان عال ينظر منها إلى العدو، والظاهر أنها قد اتخذت للنزهة عند العباسيين.

(٧٠) بغداد في عصر الخلافة العباسية ١٥٠.

(٧١) في التراث العربي ١/١٠٠.

(٦٣) كذا وردت، ولعلها (العتابيين).

(٦٤) معجم البلدان في (باب حرب) و(الحربية).

(٦٥) الرحلة ١٨١.

(٦٦) معجم البلدان في (قطفاتا).

(٦٧) خلاصة الذهب المسبوك ٢٨٢.

قبر الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه وبه تُعرَفُ المحلّة وبالقرب من تلك المحلّة قبر الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، وفي تلك الجهة قبر أبي بكر الشّبيلي رحمه الله وقبر الحسين بن منصور الحلاج»^(٧٩).

ان ابن جُبَيْر لم يذكر لنا اسم المحلّة التي كانت بإزاء الرّصافة ويظهر أنه أرادَ محلّة دار الرّوم، أما باب الطّاق فهي محلّة كبيرة بالجانب الشرقي عُرفت بطاق أسماء ونسبت إلى أسماء بنت المنصور وهذه المحلّة كانت بين الرّصافة ونهر المعلى وكان هذا الطّاق عظيمًا، والطّاق في اللّغة هو البناء المعقود، وهذا الطّاق كان في دار أسماء التي صارت لعلي بن جهشيار صاحب الموفق النّاصر لدين الله أقطعه إياها الموفق وعند هذا الطّاق كان مجلس الشّعراء في أيام الرّشيد^(٨٠)، وعند باب الطّاق هذا جسرٌ طرفه الآخر عند البيمارستان العضدي كما ذكر المؤرخون^(٨١)، ولعل هذا الجسر هو الذي عناه الشّاعر علي بن الجهم بقوله المشهور: «عيون المها بين الرّصافة والجسر».

ومن المعلوم في خطط بغداد أن الرّصافة هي التي كانت تسمّى أوّلًا عسكر المهدي، عمّرها أبو جعفر المنصور لولده المهدي فنُسبت إليه^(٨٢). أما قبر الإمام أبي حنيفة فهو بلسق محلّة الرّصافة

باسم دار المسناة، وأنّ مَوْقِعَ الإيوان المائل اليوم يوافق موضع القصر الذي ذكره ابن جُبَيْر^(٧٢)، وأنّ باني دار المسناة هو الخليفة العبّاسي النّاصر لدين الله^(٧٣) وقد أيد الدّكتور مصطفى جواد هذا الرّأي فقال: «إنّ هذا القصر هو المعروف قديمًا بدار المسناة وحديثًا بالقصر العبّاسي»^(٧٤)، وعدّ الدّكتور دار المسناة هذه دار علم وعلماء^(٧٥) وأيده في ذلك الدّكتور أحمد سوسة فقالا معًا: «إنّ القصر الذي كان بأعلى بغداد الشرقيّة الذي سعد إليه الخليفة النّاصر كما شاهد ذلك ابن جُبَيْر هو دار المسناة التي تسمى اليوم القصر العبّاسي داخل القلعة بلسق مجلس النّواب^(٧٦)، وقد أقام فيها الخليفة النّاصر خزانة كتب جلييلة وكانت بنايتها أقرب إلى بنايات المدارس»^(٧٧)، غير أنّ الدّكتور ناجي معروف ذهب إلى أنّ هذا القصر هو المدرسة الشّرابية التي أسّسها إقبال الشّرابي^(٧٨).

وتصدّى الرّحالة ابن جُبَيْر إلى ذكر بغداد الشرقيّة قائلاً: «وبأعلى الشرقيّة خارج البلد محلّة كبيرة بإزاء محلّة الرّصافة وبالرّصافة كان باب الطّاق المشهور يجلس فيه الشّعراء، وفي تلك المحلّة مشهد حفيل البنيان له قبة بيضاء... فيه

(٧٢) مباحث عراقية ١ / ٢٨٦.

(٧٣) المصدر نفسه ١ / ٢٨٥.

(٧٤) في التّراث العربي ١ / ٢٧.

(٧٥) مدارس بغداد / ١٦٣.

(٧٦) دليل خارطة بغداد / ١٧٣.

(٧٧) المصدر المتقدم / ١٨٦.

(٧٨) مباحث عراقية ١ / ٢٨٥.

(٧٩) الرّحلة ١٨١.

(٨٠) معجم البلدان في (باب الطّاق)، و(طاق كسرى).

(٨١) أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم ١٢٠، دليل

خارطة بغداد ١٤٣.

(٨٢) معجم البلدان في (الرّصافة)، و(عسكر المهدي)،

وفيات الأعيان ٤ / ٣٥١.

التي ذكرها ياقوت فقال فيما قال في وصفها: «... وبلصقها محلّة أبي حنيفة الإمام وبها قبره وهناك محلّة وسويق ويلاصقها دار الرّوم...»^(٨٣) ومن المعروف أن قبر الإمام أبي حنيفة كان في المقبرة المسماة قديماً بمقبرة الخيزران^(٨٤) والرّصافة بناها المهدي وفرغ منها ومن بناء جامعها سنة ١٥٩ هـ وكانت تُعرف بعسكر المهدي لأنه عسكر بها حين شخص إلى الرّي فلما قدم منها نزل الرّصافة وذلك سنة ١٥١ هـ ثم خربت الرّصافة ولم يبق منها على عهد ياقوت الحموي إلا جامعها وبلصقه مقابر الخلفاء العبّاسيين وبلصقها محلّة أبي حنيفة وبها قبره وهناك محلّة وسويق ويلاصقها دار الرّوم ولم يبق شيء غير هذا^(٨٥) ويقول ابن عبد الحق: إن الرّصافة قد انقطعت العمارة عنها فبنى عليها الإمام المستنصر بالله سوراً حسناً بالأجر^(٨٦).

هذا ويعد من المشكل قول ابن جبير: «وبالقرب من تلك المحلّة (أي محلّة أبي حنيفة) قبر الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، وفي تلك الناحية قبر أبي بكر الشّبلي، وقبر الحسين بن منصور الحلاج» وذلك لأن المعروف أن قبر الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ هو في محلّة الحربية في أعلى الجانب الغربي كما صرح بذلك جملة من المؤرخين، وليس في الجانب الشرقي، ومن الثّابت

(٨٣) معجم البلدان في (الرّصافة).

(٨٤) وفيات الأعيان ٥ / ٤١٤.

(٨٥) معجم البلدان في (رصافة بغداد) و(عسكر المهدي).

(٨٦) مراصد الاطلاع في (رصافة بغداد).

أن أبا بكر الشّبلي الصّوفي توفي سنة ٣٣٤ هـ ببغداد ودفن في مقبرة الخيزران^(٨٧) وهي في الجانب الشرقيّ منسوبة إلى الخيزران أم الرّشيد والهادي أخيه، وإنما نسبت إليها لأنها دفنت فيها وهذه المقبرة هي أقدم مقابر الجانب الشرقيّ ببغداد^(٨٨)، ولم يذكر ياقوت مقبرة الخيزران في معجم البلدان بل ذكرها صاحب المراصد فقال فيها: «مقبرة الخيزران قريبة من الرّصافة ببغداد وبها قبر الإمام أبي حنيفة النّعمان بن ثابت ظاهر يزار ومحمّد بن إسحاق وغيرهما^(٨٩) ونرى ابن جبير قد جاء في رحلته بنص يتعلّق بقبر الحلاج غير أنه لم يعين لنا موضع مرقد، وتحسن الإشارة هنا إلى ان ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) قال في مقتل الحلاج: «... وضرب ألف سوط ثمّ قطعت يده ثمّ رجليه وحزّ رأسه وأحرقت جثته وألقي رماده في دجلة»^(٩٠) وقد قال ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) مثل قول ابن الجوزي المتقدّم^(٩١) وقد قيل إن المرقد المنسوب إلى الحلاج في الجانب الغربيّ من بغداد في موضع خلف مستشفى الكرامة حالياً في منطقة تسمى (المنصورية) نسبةً إليه ليس له وإنما هو لمحمّد بن أحمد القطان المعروف بابن الحلاج^(٩٢). ويعود ابن جبير إلى ذكر الجانب الشرقيّ

(٨٧) وفيات الأعيان ٢ / ٢٧٦.

(٨٨) المصدر السابق ٤ / ٢٧٧.

(٨٩) مراصد الاطلاع في (الخيزران).

(٩٠) المنتظم ٦ / ١٦٤.

(٩١) وفيات الأعيان ٢ / ١٤٥، تاريخ بغداد للخطيب

البغداديّ ٨ / ١٤٠.

(٩٢) مرادد بغداد للشيخ ٤٦.

من بغداد فيقول «وأما الشرقيّة فهي اليوم دار الخلافة وكفاها بذلك شرفاً واحتفالاً ودور الخليفة في اخرها وهي تقع منها في نحو الرّبع أو ازيد لان جميع العباسيين في تلك الدّيار معتقلون اعتقالاتاً جميلاً لا يخرجون ولا يظهرن... وللخليفة من تلك الدّيار جزء كبير قد اتخذ فيها المناظر المشرفة والقصور الرّائقة والبساتين الأنيقة والشرقيّة حافلة الأسواق عظيمة التّرتيب تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم إلاّ الله تعالى الذي أحصى كل شيء عدداً...»، وعرج على ذكر مساجد الجانب الشرقيّ فقال: «وبها من الجوامع ثلاثة كل يجمع فيها، جامع الخليفة متصل بداره وهو جامع كبير فيه سقايات عظيمة ومرافق كثيرة كاملة الوجود والطّهور، وجامع السّلطان وهو خارج البلد ويتصل بين قصور تنسب للسّلطان أيضاً المعروف بشاه شاه، وكان مدبر أمر أجداد هذا الخليفة وكان يسكن هنالك، فأبنتى الجامع أمام مسكنه، وجامع الرّصافة وهو على الجانب الشرقيّ المذكور بينه وبين جامع هذا السّلطان المذكور مسافة نحو الميل. وبالرّصافة تربة الخلفاء العباسيين رحمهم الله فجميع جوامع البلد المجمع فيها أحد عشر»^(٩٣)، أما جامع الخليفة الذي ذكره الرّحالة فهو مسجد دار الخلافة قال فيه الخطيب البغداديّ (ت ٤٦٣هـ): «... فأدركت صلاة الجمعة وهي تقام في مسجد المدينة»^(٩٤) ومسجد

(٩٣) الرّحلة ١٨١ - ١٨٣.

(٩٤) مسجد المدينة، وهو مسجد مدينة المنصور المسمى أيضاً جامع المنصور.

الرّصافة ومسجد دار الخلافة...»^(٩٥). وقد سُمّي هذا الجامع جامع القصر وجامع الخليفة، وسُمّي أخيراً جامع الخلفاء^(٩٦) أما جامع السّلطان الذي كان خارج البلد المتصل بقصور السّلطان وهو السّلطان ملك شاه بن ألب أرسلان السّلاجوقي وهو الذي عمّر جامع السّلطان ابتداءً بعمارته في المحرم من سنة خمس وثمانين وأربعمئة وزاد في دار السّلطنة بها^(٩٧) وفيما يتعلّق بجامع الخليفة وهو جامع القصر يذكر بأن الخليفة المكتفي أمر بهدم المطامير التي بناها المعتضد بالقصر الحسنّي وأمر بجعل موضعها مسجداً جامعاً وفي سنة ٤٧٩هـ تمت عمارة المنارة بجامع القصر وأذن فيها، وفي سنة ٦٣٥هـ تمت عمارة باب جامع القصر^(٩٨) وفي سنة ٦٧٨هـ شُيِّدت مئذنة في جامع القصر ما تزال قائمة إلى الآن عُرفت بمنارة سوق الغزل، وشيّد سليمان باشا الكبير الوالي (١١٩٣ - ١٢١٧هـ) جامعاً في غرب المنارة بقي قائماً إلى سنة ١٩٥٧م ويُعرف بجامع سوق الغزل ثمّ هُدم من أجل الشّارع الجديد^(٩٩) ويختم الرّحالة الأندلسي كلامه عن بغداد بذكر أبواب الشرقيّة فقال: «... وللشرقيّة أربعة أبواب فأولها وهو في أعلى الشّطّ باب السّلطان ثمّ باب الظّفريّة ثمّ يليه باب الحلبة ثمّ باب البصلية وهذه الأبواب

(٩٥) تاريخ بغداد ١/١١٠.

(٩٦) دليل خارطة بغداد ١٨٠.

(٩٧) المنتظم ٦٩/٩، وفيات الأعيان ٥/٢٨٤.

(٩٨) مباحث عراقية ١/١٣٨.

(٩٩) دليل خارطة بغداد ١٢٥.

هي التي في السور المحيط بها من أعلى الشطّ إلى أسفله وهو يعطف عليها كنصف دائرة مستطيلة وداخلها في الأسواق أبواب كثيرة^(١٠٠). إن هذه الأبواب التي أشار إليها ابن جُبَيْر كانت في السور المحيط ببغداد الشرقية الذي بدأ بإنشائه الخليفة المستظهر في أول حكمه الممتد من ٤٨٧ - ٥١٢ هـ إذ بُوِشِرَ بإنشاء سور عظيم واسع يحيط بالمدينة الشرقية وكان الشروع في إنشاء هذا السور في سنة ٤٨٨ هـ، فأنجز قسم يسير منه في عهد المستظهر وأكمل إنشائه في عهد الخليفة المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩ هـ)، وبقي هذا السور قائماً حتى أواخر القرن الثالث عشر للهجرة. وأما باب السلطان فهو منسوب إلى السلطان طغرل بيك وكان موقعه عند باب المعظم الحالي وباب الظفرية أضيف إلى محلة نسبت إلى ظفر أحد مماليك الخلفاء وما زال جزءاً من هذا الباب قائماً إلى اليوم ويُعرف بباب الوسطاني وموقعه اليوم قرب مرقد الشيخ عمر السهروردي، وأما باب الحلبة فسمي بذلك لقربه من ميدان السباق الذي كان في هذا الموضع قبل إنشاء السور المذكور، وقد عرف هذا الباب في العهد الأخير بباب الطلسم ومن هذا الباب دخل السلطان مراد الرابع العثماني عندما فتح بغداد سنة ١٠٤٨ هـ. وأما باب البصلية فهو الباب الذي يقع قرب ضفة دجلة وكان يُدعى باب كلوانا؛ لأنّ الطريق الذي يخرج منه يؤدي إلى قرية كلوانا وفي جوار هذا الباب أنشئت محلة البصلية التي ذكرها ياقوت الحموي وقال: إنّ الخليفة المقتدي هو الذي أنشأها وموقع هذا الباب في موضع الباب الشرقي

(١٠٠) الرحلة / ١٨٤.

الذي أزيل من أمين العاصمة أرشد العمري^(١٠١). وبعد، فهذه جملة من الإشارات التي أثبتتها الرحالة الأندلسي ابن جُبَيْر في رحلته إلى بغداد، وهي إشارات لها قيمتها التاريخية، وهي بهذا تُعدُّ مصدرًا من مصادر الخطط البغدادية المهمة في عصورها العباسية المتأخرة، والحمد لله رب العالمين.

بغداد في رحلة ابن بطوطة

هو محمّد بن عبد الله بن محمّد بن إبراهيم اللواتي الطنجي أبو عبد الله (ابن بطوطة) رحالة مؤرخ ولد ونشأ في (طنجة) بالمغرب الأقصى وخرج منها سنة ٧٢٥ هـ فطاف بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق وفارس واليمن والبحرين وتركستان وما وراء النهر وبعض الهند والصين والجاوة وبلاد التتر وأواسط أفريقية، واتصل بكثير من الملوك والأمراء فمدحهم وكان ينظم الشعر واستعان بهياتهم على أسفاره وعاد إلى المغرب الأقصى فانقطع إلى السلطان (أبي عنان) من ملوك بني مريم فأقام في بلاده وأملى أخبار رحلته على محمّد بن جزى الكلبي بمدينة فاس سنة ٧٥٦ هـ، وسمّاها (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، تُرجمت إلى اللغات البرتغالية والفرنسية والإنكليزية ونُشرت بها، وترجمت فصول منها إلى الألمانية، وكان يُحسن التركية والفارسية، واستغرقت رحلته ٢٧ سنة، ومات في مراکش ولقبته جمعية (كمبردج)

(١٠١) دليل خارطة بغداد ١٦١ - ١٦٣.

في كتبها وأطالسها بأمر الرّجالين المسلمين^(١٠٢). وقد زار العراق ودخله من طريق العذيب والقادسية، فزار النّجف الأشرف ووصف الرّوضة العلوية الشّريفة، ثمّ زار واسط ووصفها، ودخل البصرة ثمّ عاد إلى الكوفة ووصف معالمها وآثارها، ودخل بغداد فوصف المدينة وآثارها ثمّ زار الموصل.

وكان دخول ابن بطّوطة مدينة بغداد سنة ٧٢٧هـ وهو أحسن من وصف بغداد في العهد الإيلخاني؛ ذلك أنه وصّف قسماً من العمارات التي كانت في زمنه^(١٠٣)، ومن المآخذ على هذا الرّحالة أنه تآبَع ابن جُبَيْر في كثيرٍ من الأخبار، بدلالة تشابه النّصين والوصفين^(١٠٤).

ومن المعلوم تاريخياً أنّ ابن جُبَيْر زارَ بغدادَ سنة ٥٨٠هـ، ومن المآخذ على ابن بطّوطة أيضاً أنّه أخطأ في تعيين جملة من المواضع البغدادية كما سيرد في هذا البحث.

أهمية الرّحلة:

لهذه الرّحلة أهمية تاريخية وخططية ذلك ان المعنيين بتاريخ بغداد والباحثين في خطط هذه المدينة القديمة عولوا على هذه الرّحلة واستندوا اليها في تعيين جملة من المواضع والآثار البغدادية ومن أبرز الكتب الخططية الحديثة التي استندت إلى رحلة ابن بطّوطة كتاب (دليل خارطة بغداد

(١٠٢) الأعلام ٦/٢٣٥، وفيه مصادر ترجمته.

(١٠٣) دليل خارطة بغداد قديماً وحديثاً ٢٠٣.

(١٠٤) المصدر نفسه /٢٠٣.

المفصل قديماً وحديثاً^(١٠٥).

وصف مدينة بغداد:

يهمننا في هذه الرّحلة الأمور التّاريخية المتعلقة ببغداد وعلى هذا يدور هذا البحث وقد بدأ ابن بطّوطة كلامه على بغداد قائلاً: «مدينة دار السّلام وحضرة الإسلام ذات القدر الشّريف والفضل المنيف مثوى الخلفاء ومقر العلماء قال أبو الحسين ابن جُبَيْر رضي الله عنه: وهذه المدينة العتيقة وإن لم تزل حضرة الخلافة العبّاسية ومثابة الدّعوة الإمامية القرشية فقد ذهب رسمها ولم يبق إلا اسمها وهي بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء^(١٠٦) الحوادث عليها، والتّفات أعين النّوائب إليها كالطلل الدّارس أو تمثال الخيال الشّاخص فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعي من المستوفز الغفلة^(١٠٧)، والنّظر إلى دجلتها التي هي بين شريقيها وغربيها كالمرآة المجلوة بين صفحتين أو العقد المنتظم بين لبتين فهي تردها ولا تظماً وتتطلع منها في مرآة صقيلة لا تصدأ. والحسن الحريمي^(١٠٨) بين هوائها ومائها ينشأ».

(١٠٥) ألفه الدّكتور مصطفى جواد والدّكتور أحمد سوسة، وطُبِعَ بمطبعة المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٥٨ وهو من الكتب الخططية البغدادية الجليّة.

(١٠٦) المراد: قبل إقبال الحوادث عليها وقد يكون المراد: قبل إثناء الحوادث عليها. يُقال: أخنى عليه الدّهر إذا أتى عليه وأهلكه.

(١٠٧) كذا ورد، والصّواب: العقلة والمراد أنه لا شيء في هذه المدينة يستدعي المستعجل أن يقف ويتأمل.

(١٠٨) لعل المراد المنسوب إلى (الحريم) وهو حريم دار الخلافة وهو في وسط بغداد.

قال ابن جزى: وكان أبا تمام حبيب بن أوس اطلع
على ما آل إليه أمرها حين قال فيها:

لقد أقام على بغداد ناعيتها

فليبكها لخراب باكيها

كانت على مائها والحرب موقدة

والنار تطفأ حسناً في نواحيها

ترجى لها عودة في الدهر صالحة

فالآن أضمر منها اليأس راجيها

مثل العجوز التي ولت شببيتها

وبان عنها جمال كان يحظيها

قال: وقد نظم الناس في مدحها وذكر محاسنها

فأطنبوا، ووجدوا مكان القول ذا سعة فأطالوا
وأطابوا.

وقال فيها الإمام القاضي أبو محمد عبد الوهاب

بن علي بن نصر المالكي البغدادي^(١٠٩)، وأنشدنيه
والدي - رحمه الله - مرات^(١١٠):

طيب الهواء ببغداد يشوقني

قرباً إليها وإن عاقت مقاديرُ

وكيف أرحل عنها اليوم إذ جمعت

طيب الهواءين ممدود ومقصورُ

وفيهما يقول أيضاً - رحمه الله تعالى ورضي
عنه^(١١١):

(١٠٩) توفي سنة ٤٢٢هـ، وله ترجمة في: وفيات الأعيان
٣ / ٢١٩، وفوات الوفيات ٤١٩.

(١١٠) قال ياقوت في (بغداد) من معجم البلدان: قال
محمد بن علي بن حبيب الماوردي كتب إلي أخي من البصرة
وأنا ببغداد، وأورد البيهقي مع اختلاف يسير.

(١١١) الأبيات في معجم البلدان (بغداد) وفي فوات
الوفيات ٢ / ٤٢٠ باختلاف يسير.

سلام على بغداد في كل موطن

وحق لها مني السلام المضاعفُ

فو الله ما فارقنا عن قلى لها

وإني بشطي جانبيها لعارفُ

ولكنها ضاقت عليّ برحبها

ولم تكن الأقدار فيها تساعفُ

وكانت كخل كنت أهوى دنوه

وأخلاقه تنأى به وتخالفُ

وفيهما يقول أيضاً مغاضباً لها وأنشدنيه والدي
- رحمه الله - غير مرة^(١١٢):

بغداد دار لأهل المال واسعة

وللصعاليك دار الضنك والضيق

ظلت أمشي مضافاً في أزقتها

كأنني مصحف في بيت زنديق

هذا شيء مما أوردته ابن بطوطة في مدحها وفي
البكاء على ماضيها ونحن نجد شيئاً مشابهاً لهذا
فيما أوردته ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) من
الأشعار في مدح بغداد وذمها^(١١٣).
جسراً بغداد:

اشتملت رحلة ابن بطوطة على وصف ما شاهده
في مدينة بغداد سنة ٧٢٧هـ فقال: «ولبغداد
جسران اثنان معقودان على نحو الصفة التي
ذكرها في جسر مدينة الحلة والناس يعبرونهما
ليلاً ونهاراً رجالاً ونساءً، فهم في ذلك في نزهة
متصلة»^(١١٤).

(١١٢) البيهقي في فوات الوفيات منسوباً للملكي وفي
معجم البلدان (بغداد) غير منسوبين له.
(١١٣) ينظر معجم البلدان في (بغداد)
(١١٤) الرحلة ١ / ١٤٠

أما ما يتعلق بجسر الحلة فقد ذكر ابن بطوطة أن للحلة جسراً عظيماً معقوداً على مراكب^(١١٥) متصلة منتظمة فيما بين الشطّين^(١١٦) تحفُّ بها منْ جانبيها سلاسل من حديدٍ مربوطة في كلا الشطّين إلى خشبة عظيمة مثبتة بالساحل^(١١٧). وقول ابن بطوطة «فهم في ذلك في نزهة متصلة» أراد به أن العبور على الجسر فوق الماء مما يجلب للنفس السرور، ومن المعلوم أن الجسور في تلك الأيام كانت قليلة، وكانَ النَّاسُ حديثي عهد بها، يزداد على هذا أنها كانت في المَدُنِ غَالِبًا، وهي مراكز الحضارة.

وتاريخ الجسور البغدادية لا يخلو من تعقيد، وابن بطوطة ذكر هذين الجسرين على نهر دجلة من غير أن يعين موضع هذين الجسرين.

ويقول المعنيون بتاريخ بغداد القديم إنَّ أوَّلَ جسرٍ شُيِّدَ على دجلة على عهد الخليفة المنصور كان بين مدينة المنصور والرّصافة، ثمَّ عَقِدَ بَعْدَ ذلك جسر في الشّمال منه وهو جسر الشّماسية وعقد الجسر الأسفل في الحد الجنوبي من سور المستعين، وبعد مقتل الخليفة الأمين عطل جسر الشّماسية فبقي جسران، ثم بنى معز الدّولة البويهية جسراً كان يربط داره بالجانب الغربي وورد ذكر جسر منسوب إلى مارستان عضد الدّولة عُرفَ بِجَسْرِ المارستان العضدي وهو

(١١٥) المراكب هنا هي السّفن وهي التي سميت في العصور المتأخرة (الدوب).

(١١٦) أي جانبا النّهر وشط النّهر في اللّغة جانبه.

(١١٧) الرحلة ١ / ١٣٨.

جسر باب الطّاق الذي ذكره المقدسي. وفي سنة ٣٨٢هـ عقد بها عضد الدّولة البويهية جسراً بين مشرعة القطنين ومصّب نهر عيسى في الجانب الغربي وسوق الثّلاثاء من الجانب الشرقي فكان في ذلك العصر ثلاثة جسور ببغداد ثمّ نقل جسر الشّماسية إلى الرّصافة فبقي جسران يمضي النَّاسُ على أحدها ويرجعون على الآخر وعلى هذا كان في بغداد في آخر العهد البويهية جسران جسر سوق الثّلاثاء عند مشرعة القطنين المقابلة لشريعة (بيت الإيلجي) قرب دار النَّوَاب على شاطئ دجلة الغربيّ أما الطّرف الشرقيّ لجسر الثّلاثاء فكان في شارع المحاكم المدينة (شارع المتنبّي)، والجسر الآخر هو جسر الرّصافة المزدوج عند باب الطّاق^(١١٨)، وفي أواخر العهد العبّاسيّ حوّل جسر باب الطّاق سنة ٤٤٨هـ فعقد بين (مشرعة الرّوايا) من الجانب الغربيّ ومشرعة الحطابين من الجانب الشرقيّ، وقد عَطّل هذا الجسر سنة ٥٤٠هـ بسبب الحروب بين البساسيري والعبّاسيّين وبقي جسر سوق الثّلاثاء، وكان في زمن المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩هـ) جسر واحد وهو جسر سوق الثّلاثاء المذكور، ثمّ نقل إلى باب الغربية سنة ٥٢٥هـ، ثمّ أعيد ثمّ نقل إلى باب الغربية مرة أخرى سنة ٥٣٠هـ، وفي سنة ٥٧٠هـ أنشأت السّيّدة (بنفشه) حظية الخليفة المستضئ جسراً جديداً عقده في مكان جسر باب الغربية بينه وبين باب الغربية (باب شارع المستنصر الحالي) وكان قد بقي الجسر العتيق قرابة خمسين سنة في الموضع المذكور ونقل

(١١٨) دليل خارطة بغداد / ١٤٨.

الجسر العتيق إلى موضع جسر سوق الثلاثاء فصار للناس جسران جسر سوق الثلاثاء وجسر باب الغربية، وكان هذان الجسران قائمين في أيام الناصر (٥٧٥-٦٢٢ هـ) ويظهر أن الجسر الذي ذكره ابن جبير سنة ٥٨٠ هـ وقال إنه بالقرب من مربعة (القرية) التي أقام فيها انما هو جسر سوق الثلاثاء وكان موجوداً قائماً في عهد الناصر ثم ظهر في التاريخ البغدادي جسر جديد عقد عند سوق السلطان في الجانب الشرقي، ويظهر أن الأمر بإنشائه هو الخليفة الظاهر ابن الناصر سنة ٦٢٢ هـ وقد ذكر هذا الجسر ابن الطقطقي المؤرخ وقال إنه موجود في زمنه سنة ٧٠١ هـ وتدل الأخبار على أنه كان في بغداد في أواخر الدولة العباسية جسران، أما الجسر الذي أشار إليه صاحب (الفخري) فكان في موضع «دار الضباط بين المجلس النيابي القديم ووزارة المعارف»، وفي أيام المغول كان ببغداد جسران الجسر المذكور آنفاً وجسر المارستان العضدي وهو جسر باب الطاق^(١١٩)، وقد تقدم أن ابن بطوطة الذي زار بغداد سنة ٧٢٧ هـ شاهد فيها جسرين، إلا أنه لم يذكر موقعيهما، وكان الجسر الأعلى في موضع دار الضباط كما سبق ذكره^(١٢٠).

مساجد بغداد:

قال ابن بطوطة: «وببغداد من المساجد التي

يُخطب فيها وتقام فيها جمعة أحد عشر مسجداً منها بالجانب الغربي ثمانية وبالجانب الشرقي ثلاثة والمساجد سواها كثيرة جداً»^(١٢١). وقال إن في الجانب الغربي مساجد جامعة، وذكر من جوامع الجانب الغربي: جامع الخليفة أبي جعفر المنصور، وقال إنه في محلة باب البصرة، ولم يذكر ابن بطوطة غير هذا الجامع في الجانب الغربي، مع أنه قال إن فيه ثمانية مساجد^(١٢٢)، أما جامع المنصور فهو من الجوامع المهمة ببغداد وكانت تقام فيه صلاة الجمعة طوال القرون الخمسة من الحكم العباسي ببغداد^(١٢٣). وكان هذا الجامع قائماً حين زار ابن بطوطة بغداد ٧٢٧ هـ، ثم اختلفت معالمه بعد ذلك ولم يبق له أثر^(١٢٤)، وكان ابن بطوطة آخر من شاهد جامع المنصور^(١٢٥). وذكر ابن بطوطة مساجد الجهة الشرقية من بغداد فقال: «وبهذه الجهة الشرقية من المساجد التي تقام فيها الجمعة ثلاثة: أحدها جامع الخليفة وهو المتصل بقصور الخلفاء ودورهم وهو جامع كبير فيه سقايات ومظاهر كثيرة للوضوء والغسل لقيت بهذا المسجد الشيخ الإمام العالم الصالح مسند العراق سراج الدين أبا حفص عمر بن علي بن عمر القزويني وسمعت عليه فيه جميع مسند أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن ابن الفضل بن بهرام الدارمي وذلك في شهر رجب الفرد عام

(١٢١) الرحلة ١/١٤٠.

(١٢٢) الرحلة ١/١٤٠.

(١٢٣) دليل خارطة بغداد/٥٧.

(١٢٤) المصدر نفسه/٥٩.

(١٢٥) المصدر نفسه/٢٠٣.

(١١٩) المصدر نفسه ١٩١-١٩٣، وينظر مختصر التاريخ ٢٣٩، ونساء الخلفاء ١١٢، ومجلة المورد (العدد الخاص بمدينة بغداد) سنة ١٩٧٩ م.
(١٢٠) دليل خارطة بغداد / ٢٠٤.

سبعة وعشرين وسبعمئة... والجامع الثاني جامع السلطان وهو خارج البلد وتتصل به قصور تنسب للسلطان، والجامع الثالث جامع الرصافة وبينه وبين جامع السلطان نحو الميل»^(١٢٦).

أما جامع الخليفة فقد أنشأه الخليفة المكتفي بالله خلال الست سنوات من حكمه (٢٨٩-٢٩٥هـ) وهو المسجد الجامع الذي كانت تقام فيه صلاة الجمعة وكان موضعه في شرقي القصر الحسني وعرف بجامع القصر ثم أطلق عليه جامع الخليفة ثم جامع الخلفاء في الأيام الأخيرة وكان الجامع الرسمي للدولة العباسية تقرأ فيه عهود القضاة ويصلى فيه على جنائز الأعيان والعلماء وتعد فيه حلقات الفقهاء والمناظرين والمحدثين وقد شيد في هذا الجامع في سنة ٦٧٨هـ منذنة ما تزال قائمة وهي تُعرف بمنارة سوق الغزل لأن الجامع قد قطعت أرضه وأنشئ في إحدى القطع الشرقية منه سوق الغزل، وقد شيد سليمان باشا الكبير والي بغداد (١١٩٣-١٢١٧هـ) جامعاً في غرب المنارة بقي قائماً إلى سنة ١٩٥٧م، وعُرف بجامع سوق الغزل. ثم هدم من أجل الشارع الجديد^(١٢٧).

أما العالم الصالح الذي لقبه ابن بطوطة في جامع الخليفة فهو أبو حفص عمر بن علي بن عمر الحسيني القزويني الشافعي المقرئ المحدث كان إمام جامع الخليفة ببغداد ولد بقزوين سنة (١٢٦) الرحلة ١/ ١٤٢.

(١٢٧) دليل خارطة بغداد / ١٢٥، ومختصر التاريخ / ١٦٨، ومباحث عراقية ١/ ١٣٢.

٦٨٣هـ، وقدم بغداد سنة ٧٠٠هـ وسمع بها من الشيوخ وكانت وفاته في أول سنة خمسين وسبعمئة ودفن تحت منظره الخلافة، والظاهر أنه دُفن في تربة أبيه بالزرايين أي الصدرية الحالية^(١٢٨).

والجامع الثاني في الجهة الشرقية من بغداد هو (جامع السلطان) وقد ذكر الرحالة ابن بطوطة أن هذا الجامع خارج البلد. أما السلطان الذي أضيف إليه هذا الجامع فهو السلطان ملكشاه بن محمد بن ألب ارسلان الذي أمر بوضع أسسه في سنة ٤٨٥هـ وأتم عمارته بهروز الخادم في سنة ٥٢٤هـ وكان موضع هذا الجامع على مسافة ميل من جامع الرصافة وهذا يعني أن موقعه بالنسبة إلى بغداد الحالية في مكان غير بعيد من (العلوانية) الحالية من الناحية الشمالية منها^(١٢٩).

وقول ابن بطوطة أن جامع السلطان خارج البلد يعني بالنسبة إلى السور المحيط ببغداد الشرقية يومئذ^(١٣٠).

ومن مساجد الجانب الشرقي المهمة (جامع الرصافة) وقد ذكر ابن بطوطة أن المسافة بين جامع الرصافة وجامع السلطان نحو الميل ويذكر المعنيون بخطط بغداد أن أول بناء شيد في الرصافة جامع الرصافة الكبير، قال ياقوت الحموي ت ٦٢٦هـ في ذكر رصافة بغداد: (... لما بنى المنصور مدينته بالجانب الغربي واستتم بناءها أمر ابنه المهدي أن يعسكر في الجانب

(١٢٨) دليل خارطة بغداد / ٢٣٧-٢٣٨.

(١٢٩) دليل خارطة بغداد / ١٥٢.

(١٣٠) المصدر نفسه / ٢٠٤.

الشرقي وأن يبني له فيه دورًا وجعلها معسكرًا له فالتحق به الناس وعمرها فصارت مقدار مدينة المنصور وعمل المهدي بها جامعًا أكبر من جامع المنصور وأحسن... وكان فراغ المهدي من بناء الرصافة والجامع بها في سنة ١٥٩ هـ وهي السنة الثانية من خلافته...^(١٣١) وقال ابن الكازروني ت ٧٦٩ هـ: (إن المهدي أمر ببناء جامع الرصافة وحاط حائطها وخذق)^(١٣٢). وموضع جامع الرصافة كان في جنوبي الأعظمية الحالية^(١٣٣).

مدارس بغداد:

قال ابن بطوطة: (إن المدارس كثيرة ببغداد كالمساجد إلا أنها خربت)^(١٣٤) ولذا لم يذكر غير مدرستين في الجانب الشرقي من بغداد، الأولى المدرسة النظامية التي وصفها بالعجيبة، وقال إنها في وسط سوق الثلاثاء، وقال إن المدرسة النظامية صارت تُضرب الأمثال بحسنها. ومن المعلوم أن سوق الثلاثاء كان من أسواق بغداد المهمة وفيه على عهد ياقوت الحموي سوق بزها الأعظم وسمي سوق الثلاثاء لأنه كان يقوم عليه سوق لأهل كلوانى وأهل بغداد قبل أن يعمر المنصور بغداد في كل شهر مرة يوم الثلاثاء فنسب إلى اليوم الذي كانت فيه السوق^(١٣٥). أما المدرسة النظامية فمنسوبة إلى نظام الملك وزير ألب أرسلان وابنه ملكشاه وقد أسست هذه المدرسة في

(١٣١) البلدان (رصافة بغداد).

(١٣٢) مختصر التاريخ/ ١١٩.

(١٣٣) دليل خارطة بغداد / ٢٠٤.

(١٣٤) الرحلة ١ / ١٤٠.

(١٣٥) معجم البلدان (سوق الثلاثاء).

سنة ٤٥٧ هـ ثم فتحت أبوابها للتلاميذ بعد ذلك بسنتين وكانت في محلّة الحظائر القديمة في آخر سوق الثلاثاء وذلك قبل إنشاء سوق المستنصرية واتصاله به من الشمال، ومحلّة الحظائر هذه كانت في موضع سوق (الكمرك) و(خان جغان) الذي حوّل إلى أسواق، وكان موقع المدرسة النظامية في أرض سوق (الخفافين) الحالي وقد بقيت هذه المدرسة قائمة إلى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، وقد درس فيها مجد الدين الفيروزآبادي المتوفى سنة ٨١٧ هـ ولم يبق من بنائها في الوقت الحاضر سوى أجرّ مصبوغ من النوع الكاشي كان في بابها وهو من صنع حديث بالنسبة إليها ثم انتزع^(١٣٦). والمدرسة الأخرى التي ذكرها الرحالة ابن بطوطة في الجانب الشرقي من بغداد هي المدرسة المستنصرية وقد عيّن موضعها في آخر سوق الثلاثاء وأنها منسوبة إلى المستنصر بالله تدرّس بها المذاهب الأربعة لكلّ مذهب ديوان فيه المسجد وموضع التدريس وجلس المدرس، في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لابسا ثياب السواد معتمًا، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة، وفي داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء^(١٣٧). وكان افتتاح هذه المدرسة في

رجب سنة إحدى وثلاثين وستمئة^(١٣٨).

(١٣٦) دليل خارطة بغداد ١٥٤.

(١٣٧) الرحلة ١ / ١٤١.

(١٣٨) مختصر التاريخ / ٢٦٠.

وكان فيها دارٌ للكتب القيِّمة النادرة في مختلف العلوم مرتبة ومبوبة حسب مواضيعها ليسهل على المطالعين مراجعتها، وكان بإزاء المدرسة (صندوق الساعات) وهي ساعة يستعان بها في معرفة أوقات الصلاة والدّرس، وقد نجت هذه المدرسة من الخراب في أثناء حصار المغول لبغداد، ومن مدرّسيها المشهورين الشَّيخ جمال الدّين عبد الله بن محمّد بن علي العاقولي المتوفى سنة ٨٢٧هـ، وما زال قبره قائمًا في الجامع المعروف بجامع العاقولي ببغداد الشرقية^(١٣٩).

ولهذه المدرسة أهميّة خطيّة خاصّة؛ لأنها من الآثار التي ما زالت قائمة، ويمكن الاستدلال بها على تعيين جملة من المواضع التي كانت مجاورة لها التي لم يبق لها أثر. قال صاحباً دليل خارطة بغداد: (ولما كان أكثر المدرسة المستنصرية لا يزال قائمًا في موضعه فإن وصف موضعها بالنسبة إلى سوق الثلاثاء والمدرسة النظامية يساعد على تعيين موضعها واثباتهما بخارطة بغداد الحديثة^(١٤٠)).

حمامات بغداد:

قال ابن بطّوطة: وحمامات بغداد كثيرة وهي من أبداع الحمامات وأكثرها مطلية بالقار مسطّحة به فيخيل لرائيه أنّه رخام أسود، وهذا القار يُجلب من عين بين الكوفة والبصرة تنبع أبدًا، ويصير في جوانبها كالصلصال فيجرف منها ويُجلب إلى

(١٣٩) دليل خارطة بغداد / ١٧٩.

(١٤٠) المصدر السابق / ٢٠٣.

بغداد، وفي كل حمّام منها خلوات كثيرة^(١٤١) كل خلوة منها مفروشة بالقار مطلي نصف حائطها مما يلي الأرض به، والنّصف الأعلى مطلي بالجص الأبيض النَّاصع؛ فالضدان بها مجتمعان فنقابل حسنهما وفي داخل كلّ خلوة حوض من الرّخام فيه أنبوبان أحدهما يجري بالماء الحار والآخر بالماء البارد فيدخل الإنسان الخلوة منها منفردًا لا يشاركه أحد إلا إن أَرَادَ ذلك، وفي زاوية كل خلوة أيضًا حوض آخر للاغتسال، فيه أيضًا أنبوبان يجريان بالحار والبارد، وكلٌّ داخل يعطى ثلاثًا من الفوط^(١٤٢)، إحداها يتّزّرُ بها عند دخوله والأخرى يتّزّرُ بها عند خروجه، والأخرى ينشّف بها الماء عن جسده، ولم أر هذا الإتقان كله في مدينة سوى بغداد، وبعض البلاد تقاربها في ذلك^(١٤٣).

الجانب الغربي من بغداد:

ثم انتقل ابن بطّوطة بعد هذا إلى ذكر الجهة الغربيّة من بغداد، فقال: إنه الجانب الذي عمر

(١٤١) يظهر من وصف الرّحالة لها أنّها تعني الحجرة الصّغيرة وقد ذكر ابن لوطه ان مفردها (خلوة) ولا أدري ضبطها، أهي بكسر الخاء أم بضمها أم بفتحها؟
(١٤٢) قال ابن منظور في (فوط) من لسان العرب: الفوطة ثوب قصير غليظ يكون منظرًا يُجلب من السّند، وقيل: الفوطة ثوب من صوف فلم يُحلّ بأكثر وجمعها الفُوط، قال أبو منصور: لم أسمع في شيء من كلام العرب في الفوط قال: ورأيت بالكوفة أزرا مخططة يشترتها الجمالون والخدم فيتّزرون بها الواحدة فوطة. قال: فلا أدري أعربي أم لا.

(١٤٣) الرحلة ١/١٤١.

أولاً وهو الآن [٧٢٧هـ] خرابٌ أكثره^(١٤٤)، وعلى ذلك فقد بقي منه ثلاث عشرة محلة كل محلة كأنها مدينة بها الحمامان والثلاثة، وفي ثمان منها المساجد الجامعة ومن هذه المحلات:

محلة باب البصرة:

ذكر الرحالة ابن بطوطة أن جامع الخليفة المنصور بهذه المحلة وبها المارستان^(١٤٥) فيما بين محلة باب البصرة ومحلة الشارع على الدجلة^(١٤٦) وهو قصر كبير خرب بقيت منه الآثار ومن المشاهد التي ذكرها ابن بطوطة في محلة باب البصرة قبر الشيخ معروف الكرخي^(١٤٧).

ومحلة باب البصرة محلة نشأت في أواسط العصر العباسي حيال باب البصرة (من أبواب بغداد، واشتهرت النسبة إليها الباب بصري)، وسكنها جماعة من العباسيين واختصت بالحنابلة وقد اتسعت اتساعاً عجيباً^(١٤٨). وقد تقدم الكلام على جامع الخليفة المنصور، أما المارستان الذي وصفه ابن بطوطة هنا فهو المعروف بالمارستان الكبير والمارستان العضدي في الجانب الغربي من بغداد وهو من المباني التي شيدها عضد الدولة البويهية، وقد أنشئ في موضع قصر الخلد الذي كان متهدماً يوم ذاك أو بجواره -على نقول بعضهم- وقد استغرق بناؤه ثلاث سنوات فقد شرع في بنائه في سنة ٣٦٨هـ، وتمت عمارته في سنة ٣٧١هـ، ثم

(١٤٤) هذا التعبير يقابل التعبير العصري: ومع ذلك.

(١٤٥) أي المارستان العضدي وهو مشهور في خطط بغداد.

(١٤٦) كذا ورد والصواب: دجلة.

(١٤٧) ينظر الرحلة ١/١٤١.

(١٤٨) دليل خارطة بغداد ٨٨.

أنشئ في الأيام المتأخرة السوق الذي سمي بسوق المارستان، وأنشئت حوله محلة واسعة تمتد من محلة باب البصرة في الجنوب إلى محلة الشارع في الشمال وعرفت بمحلة المارستان، وكان الرحالة ابن جبير الذي زار بغداد سنة ٥٨٠هـ قد ذكر هذا المارستان وقال: إنه يقع على دجلة في محلة سوق المارستان ويستفاد من اخبار بغداد أن هذا المارستان كان قريباً من طرف الجسر الغربي في بغداد الغربية وبتربة من أرض قصر الخلد الذي كان قريباً من الجسر^(١٤٩).

ويرى المعنيون بخط بغداد أن تعيين ابن بطوطة قبر الشيخ معروف الكرخي في محلة باب البصرة خطأ منه، ولعله نقل ذلك من أفواه الناس، لأنه خلط بين محلة باب البصرة ومحلة قطفنا المجاورة لمقعد الشيخ الكرخي^(١٥٠). ومن المشاهد التي شاهدها ابن بطوطة في الجهة الغربية من بغداد:

مشهد عون ومعين:

قال: إن هذا المشهد بطريق باب البصرة وهو مشهد حافل البناء في داخله قبر متسع السنم مكتوب عليه هذا قبر عون من أولاد علي بن أبي طالب^(١٥١). وقد قيل إن ابن بطوطة نسخ ما ذكره ابن جبير في رحلته كما فعل في كثير من الأخبار بدلالة تشابه النصين والوصفين^(١٥٢) وإلى جانب مشهد عون ومعين أنشأت سلجوقه خاتون زوجة الخليفة الناصر المتوفاة سنة ٥٨٤هـ تربة في

(١٤٩) المصدر المتقدم ١٤٠-١٤٢.

(١٥٠) المصدر نفسه / ٢٠٣.

(١٥١) الرحلة ١/١٤١.

(١٥٢) دليل خارطة بغداد ١٦٩.

بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السّلام توفي ببغداد سنة ٢١٩هـ، ودُفِنَ عند جَدِهِ مُوسَى الكاظم، وكان عمره خمسًا وعشرين سنة^(١٥٧). ثم انتقلَ صاحبُ هذه الرّحلة إلى ذكر الجانب الآخر من بغداد وهو الجانب الشرقيّ:

ذكر الجانب الشرقيّ:

قال: وهذه الجهة الشرقيّة من بغداد حافلة الأسواق عظيمة التّرتيب وأعظم أسواقها يُعرف بسوق الثّلاثاء، كل صناعة فيها على حدة، وفي وسط هذا السّوق المدرسة النّظامية العجبة التي صارت الأمثال تضرب بحسنها وفي آخره المدرسة المستنصرية... وقد تقدم ذكر هذا.

ثمّ انتقل ابن بطّوطة بعد هذا إلى عنوان آخر يتعلق بجانب بغداد الشرقيّ وهو: ذكر قبور الخلفاء ببغداد وقبور بعض^(١٥٨) العلماء الصّالحين بها:

قال: وقبور الخلفاء العبّاسيّين رضي الله عنهم بالرّصافة وعلى كل قبر منها اسم صاحبه فمنهم قبر المهدي وقبر الهادي وقبر الأمين وقبر المعتصم وقبر الواثق وقبر المتوكل وقبر المنتصر وقبر المستعين وقبر المعتز وقبر المهدي وقبر المعتمد وقبر المعتضد وقبر المكتفي وقبر المقتدر وقبر القاهر وقبر الرّاضي وقبر المتقي وقبر المستكفي وقبر المطيع لله وقبر الطّائغ وقبر القائم وقبر القادر وقبر المستظهر وقبر المسترشد وقبر الرّاشد

(١٥٧) موسوعة العتبات المقدسة (قسم الكاظمين) ١/٩٤، الكامل في التّاريخ ٦/٣٢١.
(١٥٨) استعمل (بعض)، وأراد به أكثر من واحد، وهذا من الاستعمالات غير الفصيحة كما نبه على ذلك العلامة مصطفى جواد رحمه الله.

مشرفة الكرخ لتُدفن فيها إذا ماتت وقد جرفت دجلة هذه التّربة قبل أكثر من مئة سنة وكانت في الموضع المسمى اليوم (شريعة الخضر إلياس) في محلّة الجعيفر من بغداد الغربيّة^(١٥٣).

قبر موسى الكاظم والجواد (عليهما السّلام):

وفي الجانب الغربيّ شاهد ابن بطّوطة قبر الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصّادق والد علي بن موسى الرّضا وإلى جانبه قبر الجواد والقبران داخل الرّوضة عليهما دكة^(١٥٤) ملبسة بالخشب عليه ألواح الفضة^(١٥٥).

من المعلوم أن الإمام موسى الكاظم عليه السّلام مدفون في مقابر قريش ببغداد الغربيّة وهي مقبرة مشهورة ومحلّة فيها خلق كثير وعليها سور بين الحربية ومقبرة أحمد بن حنبل رضي الله عنه والحريم الطّاهري وبينها وبين دجلة شوط فرس جيد وهي التي فيها قبر موسى الكاظم بن جعفر الصّادق بن محمّد الباقر بن علي زين العابدين بن الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب وكان أوّل من دفن فيها جعفر الأكبر بن المنصور سنة ١٥٠هـ وكان المنصور أوّل من جعلها مقبرة لما ابنتى مدينته سنة ١٤٩هـ^(١٥٦).

الإمام الجواد المذكور في هذه الرّحلة هو محمّد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمّد بن عليّ

(١٥٣) المصدر المتقدم ٢٤١، نساء الخلفاء ١١٧.
(١٥٤) جاء في (دكك) من صحاح الجوهري: والدّكة والدّكان: الذي يقعد عليه. وقد أنث ابن بطّوطة (الدكان)، وأراد بهذه اللفظة على ما يظهر ما يعلو القبرين الشّريفيين من البناء.
(١٥٥) الرحلة ١/١٤١.
(١٥٦) معجم البلدان (مقابر قريش).

وقبر المقتفي وقبر المستنجد وقبر المستضع
وقبر الناصر وقبر الظاهر وقبر المستنصر وقبر
المستعصم وهو اخرهم وعليه دخل التتر ببغداد
بالسيف وذبحوه بعد أيام من دخولهم وانقطع
من بغداد اسم الخلافة العباسية وذلك في سنة
أربع وخمسين^(١٥٩) وستمئة^(١٦٠).

الحق أن ما ذكره ابن بطوطة في هذه القضية
التاريخية يحتاج إلى تحقيق تاريخي فقد ذكر هذا
الرحالة اثنين وثلاثين خليفة كتبت أسماؤهم على

قبورهم منهم المستعصم آخرهم وهذا قوله مبني
على الخيال لأن المغول لما قتلوا المستعصم أخفوا
جثته مع ابنه أحمد وعبد الرحمن ولم يعلم لواحد
منهم قبر صحيح بين القبور والذي قيل في ذلك
اختراع وابتداع^(١٦١).

ومن أجل إيضاح الحقيقة أذكر هنا أسماء
الخلفاء العباسيين الذين ذكرهم ابن بطوطة
وتواريخ وفياتهم ومواضع وفياتهم ومواضع
دفنهم استناداً إلى كتب التاريخ المعول عليها في
هذا الشأن.

اسم الخليفة	سنة وفاته	موضع وفاته	موضع دفنه
المهدي	١٦٩هـ	قرية الرّذ بماسبذان قرب (البندنيجين) (مندي)	في موضع وفاته ^(١٦٢)
الهادي	١٧٠هـ	بغداد	في قصره بعباباذ ^(١٦٣)
الأمين	١٩٨هـ	بغداد	مقابر قريش ^(١٦٤)
المعتصم	٢٢٧هـ	سر من رأى	سر من رأى ^(١٦٥)
الواثق	٢٣٢هـ	سر من رأى	سر من رأى ^(١٦٦)
المتوكل	٢٤٧هـ	سر من رأى	سر من رأى ^(١٦٧)
المنتصر	٢٤٨هـ	سر من رأى	الجوسق الخاقاني بسر من رأى ^(١٦٨)
المستعين	٢٥٢هـ	القادسية قرب سر من رأى	سر من رأى ^(١٦٩)
المعتز	٣٥٥هـ	سر من رأى	في (السّميدع) من سر من رأى ^(١٧٠)
المهتدي	٢٥٦هـ	بغداد	في دار محمّد بن خاقان بسر من رأى ^(١٧١)

- (١٦٥) المصدر نفسه ١٤٠.
(١٦٦) المصدر نفسه ١٤٤.
(١٦٧) المصدر نفسه ١٢٧.
(١٦٨) المصدر نفسه ١٥١.
(١٦٩) المصدر نفسه ١٥٨.
(١٧٠) المصدر نفسه ١٥٦.
(١٧١) المصدر نفسه ١٥.

- (١٥٩) كذا ورد، والصّحيح: في سنة ست وخمسين
وستمئة.
(١٦٠) الرحلة ١/١٤١.
(١٦١) دليل خارطة بغداد ٢٩٤.
(١٦٢) مختصر التاريخ ١١٩.
(١٦٣) المصدر نفسه ١٢٣.
(١٦٤) المصدر نفسه ١٣٣.

سر من رأى ^(١٧٢)	بغداد	٢٧٩هـ	المعتمد
حجرة الرّخام في دار محمّد بن طاهر بالحريم الطّاهري ^(١٧٣)	بغداد	٢٨٩هـ	المعتضد
دار ابن طاهر بالحريم الطّاهري في بغداد الغربيّة ^(١٧٤)	باب الشّمسية ببغداد الشّرقية	٢٩٥هـ	المكتفي
في الشّمسية وأخفي قبره ^(١٧٥)	دار ابن طاهر ببغداد الشّرقية	٣٢٠هـ	المقتدر
دفن إلى جانب أبيه المعتضد ببغداد الغربيّة ^(١٧٦)	دار ابن طاهر ببغداد الغربيّة	٣٣٩هـ	القاھر
ترب الرّصافة ببغداد الشّرقية ^(١٧٧)	بغداد	٣٢٩هـ	الراضي
في دار اسحاق بدار بطيخ بالجانب الغربيّ من بغداد ^(١٧٨)	بغداد	٣٥٧هـ	المتقي
ترب الرّصافة ^(١٧٩)	بغداد	٣٣٨هـ	المستكفي
تربة خاصة عملها لنفسه في الرّصافة ^(١٨٠)	بغداد	٣٦٤هـ	المطيع
ترب الرّصافة ^(١٨١)	بغداد	٣٩٣هـ	الطائع
دار الخلافة وبعد سنة نقل إلى ترب الرّصافة ^(١٨٢)	بغداد	٤٢٢هـ	القادر
في حجرة بدار الخلافة ثمّ نقل إلى ترب الرّصافة ^(١٨٤)	بغداد	٤٦٧هـ	القائم ^(١٨٣)
دار الخلافة ثمّ نقل إلى ترب الرّصافة ^(١٨٥)	بغداد	٤٨٧هـ	
دار الخلافة ثمّ نقل إلى ترب الرّصافة ^(١٨٦)			

- (١٧٢) المصدر نفسه ٢٠٨.
- (١٧٣) المصدر نفسه ١٦٧.
- (١٧٤) المصدر نفسه ١٧٠.
- (١٧٥) المصدر نفسه ١٧٣.
- (١٧٦) المصدر نفسه ١٧٧.
- (١٧٧) المصدر نفسه ٢٠٨.
- (١٧٨) المصدر نفسه ١٦٢.
- (١٧٩) المصدر نفسه ١٧٠.
- (١٨٠) المصدر نفسه ١٧٣.
- (١٨١) المصدر نفسه ١٧٧.
- (١٨٢) المصدر نفسه ١٨٠.
- (١٨٣) قدّم ابن بطّوطة القائم على القادر في ذكره قبور الخلفاء العبّاسيين.
- (١٨٤) مختصر التّاريخ / ٢٠٨.
- (١٨٥) لم يذكره ابن بطّوطة في أسماء الخلفاء المدفونين ببغداد.
- (١٨٦) مختصر التّاريخ / ٢١٢.

دار الخلافة ببغداد ثمّ نقل بعد أشهر إلى ترب الرّصافة ^(١٨٨)	بغداد	٥١٢هـ	المستظهر ^(١٨٧)
في موضع وفاته ^(١٨٩)	مراغة	٥٢٩هـ	المسترشد
شهرستانة في أصفهان ^(١٩٠)	أصفهان	٥٣٢هـ	الراشد
دار الخلافة ثمّ نقل إلى ترب الرّصافة ^(١٩١)	بغداد	٥٥٥هـ	المقتفي
دار الخلافة ثمّ نقل إلى ترب الرّصافة بعد أشهر ^(١٩٢)	بغداد	٥٦٦هـ	المستجد
دار الصّخر بدار الخلافة ثمّ نقل إلى تربة بالجانب الغربيّ على شاطئ دجلة بقصر بني المأمون بعد سنة من وفاته ^(١٩٣)	بغداد	٥٧٥هـ	المستضيء
في إيوان دار صخر ببغداد ثمّ نقل إلى ترب الرّصافة فدفن إلى جانب جده المستجد ^(١٩٤)	بغداد	٦٢٢هـ	الناصر
دار الخلافة ثمّ نقل إلى ترب الرّصافة فدفن إلى جانب والده ^(١٩٥)	بغداد	٦٢٣هـ	الظاهر
في الدار المئمة ثمّ نقل إلى ترب الرّصافة ^(١٩٦)	بغداد	٦٤٠هـ	المستنصر
عفي قبره ^(١٩٨)	بغداد	٦٥٦هـ ^(١٩٧)	المستعصم

والحقُّ أنّ مَدافِنَ الخُلَفَاءِ العَبَّاسِيِّينَ، أو ما عُرِفَ في التَّارِيخِ بِـ(ترب الرّصافة) من الأُمُورِ التَّارِيخِيَةِ العَوِيصَةِ الَّتِي عُنِيَ بِهَا المُؤرِّخُونَ، وَأذْكَرُ هُنَا أَنَّ الحَمَوِيَّ قَالِ فِي ذِكْرِ الرّصَافَةِ: (...)

وبرصافة بغداد مقابر جماعة الخلفاء من بني العباس وعليهم تربة عظيمة بعمارة هائلة المنظر عليها هيبة وجلالة إذا رآها الرائي خشع قلبه

(١٨٧) ذكره ابن بطّوطة بعد القادر.

(١٨٨) مختصر التّاريخ / ٢١٧.

(١٨٩) المصدر نفسه.

(١٩٠) المصدر نفسه / ٢٢٧.

(١٩١) المصدر نفسه / ٢٣٠.

(١٩٢) المصدر نفسه / ٢٣٥.

(١٩٣) المصدر نفسه / ١٣٩.

(١٩٤) المصدر نفسه / ٢٤٨.

(١٩٥) مختصر التّاريخ / ٢٥٧.

(١٩٦) مختصر التّاريخ / ٢٦٣، الحوادث الجامعة / ٢٠٠.

(١٩٧) ذكر ابن بطّوطة أن المغول قتلوا الخليفة

المستعصم سنة ٦٥٤ هـ، والصّحيح أنّه قتل في صفر من

سنة ٦٥٦ هـ كما تذكر كتب التّاريخ المشهورة. مختصر

التّاريخ / ٢١٢.

(١٩٨) مختصر التّاريخ / ٢٧٤.

وعليها وقوف وخدم مرتبون للنظر في مصالحتها وبها من الخلفاء الرّاضي بن المقتدر وهو في قبة مفردة في ظاهر سور الرّصافة وحده وفي التّربة قبر المستكفي والمطيع والقادر والقائم والمقتدي والمستظهر والمقتفي والمستنجد وأما المستضيء فعليه تربة مفردة في ظاهر محلّة قصر المعتضد والمكتفي والقاهر أبنيه بدار طاهر ابن الحسين وبها المتقي أيضاً...^(١٩٩).

وجاء في كتاب الحوادث الجامعة في حوادث سنة ٦٤٧هـ: (وكان في السّنة الخالية قد انشق حائط تربة الخليفة المستضيء بأمر الله فنقل من مدفنه إلى موضع في التّربة المذكورة ونقل معه سبعة توابيت... ثمّ نقلوا في هذه السّنة إلى التّرب بالرّصافة ونقل أيضاً من الحريم الطاهر إلى الرّصافة المعتضد بالله بعد ثلاثمئة ونيّف وخمسين سنة من وفاته وولده المكتفي بعد ثلاثمئة وخمسين سنة والقاهر أخو المكتفي بعد ثلاثمئة سنة وابن أخي القاهر بعد مئتين وتسعين سنة والمستكفي بعد ثلاثمئة وعشر سنين)^(٢٠٠).

قال المؤرخ العراقيّ العلامة مصطفى جواد: (وقد أحرقت هذه التّربة أو التّرب عند احتلال هولاء المغولي لبغداد سنة ٦٥٦ هـ ولما شاهد شمس الدّين محمّد بن عبيد الله الكوفيّ الواعظ تُرَب الرّصافة المذكورة وقد نبشت قبور الخلفاء وأحرقت تلك الأماكن وأبرزت العظام والرّؤوس كتَب على بعض حيطانها.

(١٩٩) معجم البلدان (رصافة بغداد).

(٢٠٠) الحوادث الجامعة ٢٨٦.

إن ترد عبرة فتلك بنو العبد

ساحلت عليهم الآفات

استبيح الحريم إذ قتل الأحـ

ياء منهم وأحرق الأموات)^(٢٠١)

بعد هذا انتقل ابن بطّوطة إلى الكلام على قبور العلماء الصّالحين بمدينة بغداد فقال: (... ويقرب الرّصافة قبر الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه وعليه قبة عظيمة وزاوية فيها الطّعام للوارد والصّادر وليس بمدينة بغداد اليوم زاوية يطعم الطّعام فيها ما عدا هذه الزّاوية فسبحان مبيد الأشياء ومغيرها، وبالقرب منها قبر الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل رضي الله عنه ولا قبة عليه ويذكر أنها بنيت على قبره مراراً فتهدمت بقدرة الله تعالى وقبره عند أهل بغداد معظم وأكثرهم على مذهبه، وبالرقب منه قبر أبي بكر الشّبليّ من أئمة الصّوفية رحمه الله، وقبر سري السّقطي وقبر بشر الحافي وقبر داوود الطّائي وقبر أبي القاسم الجنيد رضي الله عنهم أجمعين، وأهل بغداد لهم يوم في كل جمعة^(٢٠٢) لزيارة شيخ من هؤلاء المشايخ ويوم لشيخ آخر يليه وهكذا إلى آخر الأسبوع، وبيغداد كثير من قبور الصّالحين والعلماء رضي الله تعالى عنهم)^(٢٠٣).

(٢٠١) نساء الخلفاء / ١٠٩، ناقلاً من الحوادث الجامعة ٣٦/٤، وقد ورد في لسان العرب في (ترب) أنّ تربة الإنسان رمسه، وفي (ترب) من المصباح المنير: التّربة المقبرة والجمع تُرَب مثل غرفة وعُرف. انتهى، ويبدو أنّ هذا من استعمالات المتأخّرين.

(٢٠٢) يريد في كل أسبوع.

(٢٠٣) الرحلة ١/١٤٢-١٤٣.

إنَّ الإمامَ أبا حنيفة النعمان تُوِّفِيَ ببغدادَ سنة ١٥٠هـ ودفن في المقبرة التي عرفت فيما بعد مقبرة الخيزران، نسبة إلى الخيزران زوج المهدي وهي مقبرة جامع الإمام الأعظم الحالية^(٢٠٤). قال صاحب المراسد: إنَّ مقبرة الخيزران قريبة من الرصافة ببغداد، وبها قبر الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت ظاهرٌ يزار، ومحمد بن إسحاق وغيرهما^(٢٠٥).
 قد توفيت الخيزران في خلافة ابنها الرشيد سنة ١٧٣هـ ودفنت في هذه المقبرة^(٢٠٦)، ولرقد أبي حنيفة أهمية تاريخية من حيث خطط بغداد الشرقية ذلك لأنه من المواضع القديمة القليلة التي ما زالت باقية في بغداد الشرقية ويعود تاريخها إلى عهد الخليفة المنصور^(٢٠٧).

أمَّا الإمام أحمد بن حنبل فهو أبو عبد الله، أحد الأئمة الأربعة ولد في بغداد سنة ١٦٤هـ، وقيل بمرو، وحمل إلى بغداد وهو رضيع، وتُوِّفِيَ ببغداد سنة ٢٤١هـ، ودفن بمقبرة باب حرب، وهذا الباب منسوب إلى حرب بن عبد الله أحد أصحاب الخليفة المنصور، وإلى حرب نسبت المحلة المعروف بالحربية وقبر أحمد بن حنبل مشهور بها يزار رحمه الله^(٢٠٨).
 وقول ابن بطوطة إنَّ قبر سري السقطي

والجنيد وبشر الحافي قبر أحمد بن حنبل من الأخطاء التاريخية؛ لأنه من الثابت أن قبر أحمد بن حنبل كان بباب حرب، وقد زال قبر أحمد بن حنبل ولم يبق له أثر منذ القرن الحادي عشر للهجرة^(٢٠٩).

وقد ذكر ابن بطوطة أنه شاهد قبر أبي بكر الشبلي، وهو أبو بكر دلف بن حيدر، وقيل جعفر بن يونس وهكذا هو مكتوب على قبره المعروف بالشبلي الصالح المشهور، وهو خراساني الأصل بغدادي المولد والمنشأ صاحب الشيخ أبا القاسم الجنيد وجماعة من الصالحين وكانت وفاته ببغداد سنة ٣٣٤هـ ودفن في مقبرة الخيزران وعمره سبع وثمانون سنة^(٢١٠).

ومن الذين ذكرهم ابن بطوطة في رحلته: سري السقطي وهو أبو الحسن سري بن المغلس السقطي أحد رجال الطريقة وأرباب الحقيقة وهو خال أبي القاسم الجنيد وأستاذه وكان تلميذ الشيخ معروف الكرخي توفي ببغداد سنة ٢٥١ أو ٢٥٧هـ ودفن بالشونيزية وهي وراء محلة التوتة بالقرب من نهر عيسى بن علي الهاشمي وهي مقبرة الشونيزي الكبير وقبر السري ظاهر معروف وإلى جنبه قبر الجنيد رضي الله عنهما^(٢١١).

وأورد ابن بطوطة ذكر بشر الحافي وهو أبو

(٢٠٩) دليل خارطة بغداد ص ٢٠٣، ويظهر أن القبر قد زال قبل زيارة نيبور العراق سنة ١٧٦٦م، كما في المصدر نفسه ص ٢١٠.

(٢١٠) وفيات الأعيان ٢ / ٢٧٣.

(٢١١) وفيات الأعيان ٢ / ٣٥٧.

(٢٠٤) دليل خارطة بغداد / ١٠٨.

(٢٠٥) مرصد الاطلاع (الخيزران).

(٢٠٦) سيدات البلاط العباسي / ١٩.

(٢٠٧) دليل خارطة بغداد / ١٠٨.

(٢٠٨) وفيات الأعيان ١ / ٦٤.

داود الظاهري؟

وقد رجّح أحد الباحثين أن داوود الظاهري مدفون بالكوفة^(٢١٦).

وآخر قبور العلماء التي ذكر ابن بطّوطة أنها في الجانب الشرقي من بغداد: قبر الشيخ أبي القاسم الجنيد وهو الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزار القواريري الزاهد المشهور أصله من نهاوند ومولده ومنشؤه العراق وكان شيخ وقته وفريد عصره وخاله الشيخ سري السقطي. المتقدّم ذكره توفي سنة ٢٩٧هـ أو ٢٩٨هـ ودفن عند خاله سري السقطي^(٢١٧) ونُسب للجنيد مسجد بغداديّ قديم في غربيّ جامع الشيخ معروف الكرخي وقبر الجنيد وسري السقطي في الحجرة الواقعة على شمال المصلّى في قبة صغيرة^(٢١٨).

وختم ابن بطّوطة كلامه على جانب بغداد الشرقيّ فقال: «وهذه الجهة الشرقيّة من بغداد ليس بها فواكه وإنما يُجلب إليها من الجهة الغربيّة لأنّ فيها البساتين والحدائق...»^(٢١٩). ولعل هذا عائد إلى أن الجهة الغربيّة من بغداد هي التي عمرت أوّلًا كما قال الرحالة نفسه.

نصر بشر بن الحارث بن عبد الرّحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان بن عبد الله المروزي المعروف بالحافي وهو أحد رجال الطّريقة كان من كبار الصّالحين سكن بغداد، وكان من أولاد الرّؤساء والكتّاب وكان مولده سنة ١٥٠هـ وتوفي سنة ٢٢٦ أو ٢٢٧هـ ببغداد، وقيل بمرّو^(٢١٢)، ولم يذكر ابن خلّكان (ت ٦٨١هـ) موضع مدفنه ولعل بشرًا الحافي الوارد في كلام ابن بطّوطة هو بشر الحنفي وهو من أهل محلّة أبي حنيفة، وكان رجلاً حنفيًا زاهدًا معاصرًا لتيمورلنك، وله خبر في تأريخ الغياث البغداديّ، وبشر الحافي الزاهد الصّوفي مدفون ببغداد في مقبرة باب حرب قرب تربة أحمد بن حنبل^(٢١٣).

وأورد ابن بطّوطة ذكر قبر آخر صاحبه: داود الطّائي، كذا أورد لقبه، وهو أبو سليمان داوود بن علي بن خلف الأصبهانيّ الإمام المشهور المعروف بالظاهري، كان زاهدًا كثير الورع أخذ العلم عن جماعة من العلماء وهو صاحب مذهب مستقلّ ولد بالكوفة سنة ٢٠٢هـ وقيل سنة ٢٠٠هـ وقيل ٢٠١هـ ونشأ ببغداد وبها تُوفّي سنة ٢٧٠هـ، ودفن بالشّوسيزية وقيل في منزله^(٢١٤). وقد ورد ذكر داوود الطّائي في رحلة الشيخ مصطفى بن كمال الدّين الصّديقي الدّمشقي الذي زار بغداد سنة ١١٣٩هـ وقال مؤلّفًا دليل خارطة بغداد: إنّ قبر داوود الطّائي الزاهد المشهور بالجانب الغربيّ^(٢١٥) فهل داوود الطّائي شيخ آخر غير

(٢١٦) خير الرّاد في تاريخ مساجد وجوامع بغداد / ٥٠٣.

(٢١٧) المصدر نفسه / ٦٧.

(٢١٨) المصدر نفسه.

(٢١٩) الرحلة / ١٤٣.

(٢١٢) المصدر المتقدم / ١ / ٢٧٤.

(٢١٣) دليل خارطة بغداد / ٢٠٨.

(١١٤) وفيات الأعيان / ٢ / ٢٥٥.

(٢١٥) دليل خارطة بغداد / ٢٠٨.

هذا أهم ما ورد في هذه الرحلة مما يتعلّق بمدينة بغداد ومشاهدا وأثارها في العهد الإيلخاني وهو العهد الذي كانت فيه زيارة ابن بطّوطة العراق سنة ٧٢٧هـ وهي رحلة مهمة لأنّها ساعدت جملةً من الباحثين في تأريخ بغداد في تعيين المواضع التي شاهدها هذا الرّحالة قبل أن تزول هذه الآثار وتدرس وتصير كأمس الدّابر وسبحان من لا يزول ملكه وله الحمد أوّلاً وآخرًا.

المصادر والمراجع

- مقدسي، ترجمة د. صالح العلي، بغداد، ١٩٨٥م.
- خير الزّاد في تاريخ مساجد وجوامع بغداد: السّيد محمّد سعيد الزّاوي، حقّقهُ وعلّق عليه د. عماد عبد السّلام رؤوف، بغداد، ٢٠٠٦م.
- دليل خارطة بغداد قديمًا وحديثًا: د. مصطفى جواد ود. أحمد سوسة، مطبعة المجمع العلمي العراقي / بغداد، ١٩٥٨م.
- رحلة ابن جُبَيْر: دار صادر، بيروت، ١٩٦٤م.
- رحلة ابن بطّوطة (تحفة النّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار): المطبعة الزّهرية، مصر، ط ١ / ١٩٢٨م.
- سيدات البلاط العبّاسيّ: د. مصطفى جواد، د. ت. – الصحاح (تاج اللّغة وصحاح العربية): أبو نصر الجوهري (ت ٣٩٨ هـ)، راجعه واعتنى به د. محمّد تامر وزميله، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٩م.
- فوات الوفيات والذيل عليها: محمّد بن شاکر الكتبي (ت ١٩٨٢م).
- أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم: شمس الدّين أبو عبد الله المقدسي (ت ٣٨٠هـ)، علق عليه ووضع حواشيه محمّد أمين الضّناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م.
- الأعلام: خير الدّين الزّركلي، دار العلم للملايين، بيروت.
- بغداد في عهد الخلافة العبّاسيّة: كي لسترانج، ترجمة وتعليق بشير فرنسيس، بغداد ط ١ / ١٩٣٦م.
- بغداد مدينة السّلام: ريجاردكوك، ترجمة فؤاد جميل ود. مصطفى جواد، بغداد، ١٩٤٢م.
- تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور: شريف يوسف، وزارة الثّقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٢م.
- الحوادث الجامعة: لمؤلف من القرن الثّامن الهجري، حقّقهُ وضبط نصه وعلّق عليه د. بشار عواد معروف ود. عماد عبد السّلام رؤوف، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٧م.
- خطط بغداد في القرن الخامس الهجري: د. جورج

- ٧٦٤هـ)، تحقيق د. إحسان عبّاس، دار صادر بيروت د.ت.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي: أحمد بن محمّد بن علي الفيومي (ت ٧٧٠هـ)، دار الفكر للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ٢٠٠٥م.
- معجم البلدان: ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، دار صادر، بيروت.
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، الدّار الوطنية، بغداد، ١٩٩٠م.
- موسوعة العتبات المقدسة، قسم الكاظمين، ج ١، بغداد.
- نساء الخلفاء: ابن السّاعي (ت ٦٧٤هـ)، حقّقهُ وعلّق عليه د. مصطفى جواد، دار المعارف مصر. د. ت.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان: ابن خلكان (ت ٦٨١هـ)، تحقيق د. إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.
- الدوريات:**
- مجلة (المورد)، مج ٨، العدد، ٤، ١٩٧٩م. (العدد الخاص ببغداد).
- ٧٦٤هـ)، تحقيق د. إحسان عبّاس، دار صادر بيروت د.ت.
- في التّراث العربي: د. مصطفى جواد، قدّم له وأخرجه ونصّحه وفهرسه محمّد جميل شلش وعبد الحميد العلوجي، ج ١، بغداد، دار الحرية، ١٩٧٥م.
- لسان العرب: ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- مباحث عراقية: يعقوب سركيس، بغداد، ١٩٢٤م.
- مختصر التّاريخ: ظهير الدّين ابن الكازروني (ت ٦٩٧هـ)، حقّقهُ د. مصطفى جواد وراجعهُ الأستاذ سالم الألويسي، بغداد، ١٩٧٠م.
- مدارس بغداد في العصر العبّاسيّ: د. عماد عبد السّلام رؤوف، بغداد، ١٩٦٦م.
- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع: صفي الدّين عبد المؤمن بن عبد الحق البغداديّ (ت ٧٣٩هـ)، تحقيق وتعليق علي محمّد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٥٥م.